مدخل إلى حضارة إيران

قبل الإسلام



د. بديع محمد جمعة

مدخل إلى حضارة إيران

قبل الإسلام

د. بديع محمد جمعة

بيئة إيران الجغرافية

إذا كان الإنسان وليد البيئة التي يعيش فيها بحيث تظهر آثـار هـذه االبيئة واضحة على ملامح شخصيته، فإن الشعوب كذلك أسيرة للأرض التي تنشأ عليها، فكما يؤثر الإنسان في هذه البيئة ويحاول تطويرها، فإن الظروف البيئية تلعب دوراً هاماً في توجيه النشاط البشري للإنسان وكذلك لأي شعب من الشعوب، فإذا تناولنا بالمقارنة شعباً يعيش وسط جزيرة تحيط بها البحار من كل جانب، بشعب آخر وسط الصحراء بقيظها وسمومها وقحطها، وشعب ثالث يعيش وسط هلال خصيب حيث الماء الوافر والزرع النضر، وجمـال الطبيعة واعتدال المناخ، فإننا نجد لكل شعب من الثلاثة سمات حضارية جد متباينة، حيث يضطر كل شعب منها للتكيف مع بيئته والتأقلم مـع مناخـه، والتعامل مع المتاح من إنتاج بيئته سواء أكان هذا الإنتاج فوق سطح الأرض أو في باطنها.

وإذا كنا نسلم بتأثير البيئة الجغرافية على أوجه النشاط البشري للشعوب يجدر بنا أن نبدأ بدراسة موجزة عن بيئة إيران الجغرافية، تلك البيئة التـي لعبت دوراً كبيراً في تكييف الشخصية الإيرانية سواء في داخـل الهضـبة الإيرانية أوفي علاقات الإيرانيين بجيرانهم شرقاً وغرباً.

جغـــرافية إيـــران

أقدم الأسماء التي عرفت بها هذه البلاد هو إيران، إذ أن هذا الاسم وثيق الصلة بالعنصر الآري الذي نزل هذه البلاد منذ عدة آلاف من الســنين قبــل الميلاد،

ويطلق عليها اسم تردد في الكتب العربية وهو إيرانشهر، فقد ورد هذا الاسم في معجم البلدان لياقوت الحموي وفي غيره من الكتب العربية.

وكان يطلق على هذه البلاد اسم (فارس)، ولكن هذا الاسم مــن قبيــل إطلاق الاسم الخاص على الكل، ففارس ليست إلا الإقليم الجنوبي الغربي من إيران، وقد أطلق هذا الاسم على الأرض الإيرانية كلها، وذلك لأن هذا الإقليم كان نواة لأول إمبراطورية إيرانية تكونت قبل الميلاد، وهي إمبراطوريـــة كورش مؤسس السرة الهخامنشية والتي تعرف في أوروبا باسم الإمبراطورية الاكمينية.

وهناك اسم آخر ظهر متأخراً عن الأسماء السابقة وهو(بــلاد العَجَــم) وهي التسمية أطلقها العرب على تلك الأماكن بعد الفتح الإسلامي وذلك لجهل الفرس باللغة العربية، فالعُجم عكس الإفصاح، والمقصود بالإفصاح الحديث باللغة العربية الفصحى، ويطلق اسم العَجَم بصفة عامة على كل من لا يجيد التحدث باللغة العربية الفصحى.

وأرض إيران عبارة عن هضبة واسعة ومرتفعة تحيط بها الجبال مــن جميع أطرافها، ففي المشرق توجد ثلاث سلاسل متوازية من الجبال تعــرف باسم (جبال سليمان)، وفي الشمال توجد جبال (ألبرز) التي تمتد كسلسلة من الشرق إلى الغرب، وهذه الجبال متفرعة في الغرب عن جبال أرمينيا، حيث تواصل مسيرتها شرقاً فتمر جنوبي بحر قزوين (الخزر) وذلك عن طريــق جبال (بابا) التي تتصل بجبال (هندوكة) وهذه تتصل بدورها بسلسلة جبــال

هيمالايا التي تعد أعلى سلسلة جبال في العالم .وفي غربي إيران تقع سلسلة كردستان التي تعرف باسم جبال (زاجرس) وهي تمتد من الشمال إلى الجنوب ثم تواصل مسيرتها صوب الشرق حتى تصل إلى سواحل بحر عمان.

وتتكون الجبال الموجودة في الجنوب والشرق من أحجار جيرية أما الجبال الغربية وعلى مقربة من بحيرة أورمية (غربي أذربيجان) فتتكون من أحجار صلدة قوية في حين تتكون بعض الجبال الشمالية من صخور بركانية ومثال ذلك جبل دوماند القريب من طهران، وجبل سيلان الواقع في أذربيجان

وبين هذه السلاسل الجبلية تقع الهضبة التي تضم منطقتين صحراويتين كبيرتين، تعرف إحداهما باسم كوير لوت أي الصحراء الخالية وتعرف الثانية باسم كوير نمك أي الصحراء الملحية.

ويلاحظ أن الهضبة الإيرانية أكثر ارتفاعاً في الجنوب مما هي عليه من ارتفاع في الشمال، حيث يبلغ متوسط ارتفاع الهضبة في الجنوب ١٦٠٠ متر بينما يبلغ متوسط ارتفاعها في مشهد خراسان ١٠٥٠ مترا وفي تبريز ١٢٠٠ متر.

ومساحة إيران القديمة كانت تبلغ ٢,٦٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع، أما مساحتها الحالية فتبلغ ثلاثة وستين بالمائة من هذه المساحة، أي حوالي ١,٦٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع .إذ أن المساحة الباقية قد انفصلت عن إيران في القرن الهجري الماضي في صورة أفغانستان وبلوخستان والأجزاء التي استولت عليها روسيا.

ويتسم جو إيران بالجفاف الشديد، وخاصة في منطقة الوسط حيث توجد صحراء لوت، والتي تعد من أكثر مناطق العالم ارتفاعاً في درجة الحرارة . وعلى هذا فإن الأمطار التي تسقط في إيران لا تكفي للزراعة الدائمة، حيث أن هذه الأمطار لا تجاوز ما بين اثنين وعشرين وثمانية وعشرين سنتيمترا

في العام، وذلك في معظم ربوع إيران عدا مناطق كيلان ومازندران وسواحل الخليج حيث تكثر الأمطار نسبياً في هذه الأماكن .ووفرة أمطار كيلان ومازندران مرجعها إلى هبوب رياح شمالية غربية محملة بالأمطار، فتصطدم بجبال ألبرز، مما يجعلها تسقط حمولتها من الأمطار، دون أن تسمح لها هذه الجبال العالية بالنفاذ إلى قلب الهضبة الإيرانية، وعلى هذا فإن السفوح الشمالية لجبال ألبرز تغطيها الأشجار والثمار، في حيث تبدو سفوحها الجنوبية قاحلة جرداء.

وإلى جانب هذه الرياح الشمالية الغربية، تهب رياح أخرى على إيران هي الرياح الجنوبية الشرقية التي تهب من المحيط الهندي وهذه أكثر حرارة من الرياح الشمالية، كما توجد بعض التيارات الهوائية الداخلية التي تهب من صحراء إيران على المناطق المجاورة لها، فتؤدي إلى ارتفاع درجات الحرارة في وسط إيران.

وتضم إيران عددا كبيرا من الأنهار التي تتسم في معظمها بأنها ضحلة لا تصلح للملاحة، وأن وديانها ضيقة لا تصلح للزراعة طوال السنة، ولا يوجد من الأنهار ما يصلح واديه للزراعة غير وادي (كارون) الذي ينبع من جبال بختياري، ويسير وسط خوزستان، أما أهم الأنهار غير هذا النهر، فتتمثل في نهر ارسي وسرخ رود، واترم وكركان وهذه كلها في الشمال وتصب في بحر الخزر، وفي أصفهان يوجد نهر زاينده رود، وفي فارس نهر رود كور الذي يصب في بحيرة نيريز .أما في الشرق فيوجد نهر مرغاب وهريورد، أما في سيمتان فيوجدا نهر هيلمند أو هيرمند، أما في أقصى الشمال فيوجد نهر جيجون الذي ينبع من بامير ويصب في بحيرة آرال.

وعلى الرغم من أن أقل ارتفاع للهضبة الإيرانية عن سطح البحر يصل إلى ٦٠٠ متر، إلا أن هذه الهضبة تضم عدداً من البحيرات التي يمكن

تفسير وجودها على ما قاله العلماء من أن الأرض الإيرانية كلها، كانت في غابر الأيام تحت سطح البحر وتغمرها المياه، ثم حدث انحسار لمياه البحر عن بعض المناطق نتيجة لبعض التغييرات الجيولوجية التي نتج عنها ارتفاع الهضبة الإيرانية عن سطح البحر، وفي وسط هذا الارتفاع بقيت بعض الأماكن المنخفضة التي ظلت مغمورة بالمياه، فظهرت في صورة بحيرات، وأهمها بحيرة أورمية الموجودة في غربي أذربيجان، وترتفع عن سطح البحر بألف متر تقريباً.

والهضبة الإيرانية غنية بالعديد من المعادن، ومن أهمها الحديد والنحاس والفحم والمرمر، والذهب، والفضة، وكذلك النفط بكميات كبيرة.

ونظراً لقلة الأمطار والأنهار الدائمة، فالزراعة هناك موسمية في معظم الأماكن وتعتمد على مياه الآبار، ومن المعروف أن شمالي إيران وغربها أكثر إنتاجاً للمحاصيل والزراعات من باقي أجزاء الهضبة الإيرانية، ويرجع هذا إلى كثرة أمطار هذه المناطق عن بقية مناطق إيران المختلفة.

وتقع مساحة إيران الشاسعة بين خطي عرض 24 و 42 شمالاً، وعلى الرغم من هذه المساحة الكبيرة، فإنها ليست العامل الأساسي في اختلاف المناخ في بعض المناطق عنه في المناطق الأخرى، بل أن العامل الأساسي يتمثل في اختلاف ظروف كل منطقة وما تتميز به عن المناطق الأخرى، ونعني بذلك قرب أو بعد كل منطقة عن البحر، أو وضع المنطقة من حيث وجودها وسط الصحراء أو على سفح هضبة أو على قمم سلسلة جبلية، إلى غير ذلك من العوامل التي تساعد على اختلاف الجو عما هو عليه في مناطق أخرى مجاورة ولكنها مختلفة معها في الوضع الجغرافي.

وأخيراً فإنه على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة في إيران صيفا وبخاصة في طهران ووسط إيران، فمن المألوف أن يرى الثلج يغطي قمم

الجبال العالية، كما هو الحال على قمة جبل (دماوند) الذي تغطي الثلوج قمته طوال فصول السنة المختلفة. في حين يتساقط الثلج بغزارة في المناطق الشمالية طوال فصل الشتاء، مما يتسبب عنه أحياناً قطع الطرق، وتوقف حركة المواصلات.

ومما لا شك فيه أن جغرافية إيران قد تركت بصماتها واضح في الشخصية الإيرانية التي يتميز بها الإيرانيون، وفي جميع مظاهر حضارتهم ومعتقداتهم، وكذلك في نوع الصلات التي جمعتهم وجيرانهم، ولا غرابة في هذا، فالإنسان وليد بيئته حيث يتأثر بها ثم يحاول أن يؤثر فيها .وسنرى أثر هذه البيئة أثناء عرض مظاهر النشاط الحضاري للجنس الآري في الهضبة الإيرانية.

العصـــر الأسطـــوري

ينقسم تاريخ إيران قبل الميلاد إلى قسمين متميـــزين، أحـــدهم تـــاريخ خرافي يحكي عن عصر يسمى بالعصر الأسطوري، وثانيهما تاريخ حقيقي يحكي عصرا حقيقيا واقعيا، وقد تسمى الأول بالأســـطوري لأن الحقـــائق التاريخية فيه ممتزجة بالأسطورة بل إن الأسطورة فيه هي الأساس وقـــد تطل من خلالها بعض الحقائق التاريخية، في حين أن العصر الحقيقي توجد الوثائق والأسانيد التي تدعم أحداثه، وليس معنى هذا أن العصر الحقيقي خلا من الأسطورة بل المقصود أن التأريخ لهذا العصر الثاني قد اعتمد في أغلب ما اعتمد على الواقعة التاريخية الحقيقية ووجد الأثر والسند الذي يؤيد هـــذه الواقعة، ثم لا يمنع هذا من تدخل الأسطورة لتفسير شيء من هذه الحقيقـــة أو لتجسيم حدث، أو لإضافة بعض الرتوش للصورة الحقيقية بقصد تجميلهـــا أوتفخيمها.

ولعل الإيرانيين لجأوا إلى الأسطورة لكي يعوضوا بها النقص الشـــديد في الآثار المكتشفة في أرضهم، فالتاريخ الذي دون حتى الآن يرجع تـــاريخ أول دولة نشأت في إيران إلى القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد، وهي الدولة الميدية، في حين يعتقد الإيرانيون أن جنسهم الآري قد هاجر إلى إيران منـــذ الألف الثالث أو الرابع قبل الميلاد . وأن الأرض الإيرانية كانت آهلة بالسكان قبل مقدم العنصر الآري إليها . وإذا كانوا قد عدموا السند التـــاريخي الـــذي يرجع تاريخهم إلى فترة موغلة في القدم كتاريخ مصـــر الفرعونيـــة وبـــلاد النهرين والهند فلا أقل من أن يجدوا عوضهم في الأسطورة.

ولا شك أن الأسطورة تتيح لصاحبها أن يحقق من خلالها أمجاداً وتقدماً وازدهاراً ربما لا يستطيع هو ولا غيره من بني البشر الوصول إليه، وعلـــى هذا وجدنا العصر الأسطوري الإيراني قد زخر بالعديد من المفاخر الإيرانية،

كما أن بعض أساطيره قد وضعها الإيرانيون لتبرير بعض الاتجاهات الفكرية التي اعتنقها الفرس، وكذلك تفسر لنا أساطير أخرى المنطلق الذي انطلقت منه بعض أحداث التاريخ الحقيقي بعد ذلك.

ومن هذا المنطلق ندرس التاريخ الأسطوري لإيران، لا على أنه أسطورة نريد أن نلم بأحداثها، ولكن ندرسه لما له من انعكاس في تاريخ إيران الحقيقي . ولما لأحداثه من تأثيرات كبيرة في بناء الشخصية الإيرانية، من خلال العادات والتقاليد التي ترجع في بدايتها إلى تلك العصور الأسطورية، ومازالت باقية حتى الآن.

وينقسم العصر الأسطوري إلى دولتين هما:

أ – الدولة البيشدادية ب – الدولة الكيانية

وأول ما يلفت النظر في الدولة البيشدادية اسمها : فهو مكون من كلمتين (بيش) بمعنى سابق و(داد) بمعنى أعطى ويقصد بكلمة بيشداد : الحاكم الأول، وهم يعنون به آدم عليه السلام، فقد أراد الإيرانيون القول بأن مهبط آدم كان في الأرض الإيرانية، وأن بداية الوجود البشري كان على أرضهم، وقد ذكرت بعض المراجع الإيرانية أن گيومرث مؤسس الدولة البيشدادية هو آدم عليه السلام، وإذا سلمنا بذلك، فإننا نسلم بأن بداية الحضارة الإنسانية كانت على أرض إيران، وهذا ما يقصده الفرس من هذا القول، ولهذا كانوا يلقبونه بـ "گلشاه" أي ملك البشر (أي المخلوقين من الطين).

وإذا كان أول حاكم ظهر في الأرض كان إيرانياً، فمعنى هذا أن العمارة في الدنيا ظهرت أول ما ظهرت في أرض إيران، وأنهم هم الذين نقلوا البشرية من سكنى الكهوف إلى بناء الدور ثم تحويلها إلى مدن كبيرة بعد ذلك.

ومما قالوا عن الأسرة البشدادية أن ملوكها هم أول من اكتشفوا المعادن واستخدموها في أغراض الزراعة والحرب، وأنهم أول من اجتثوا الغابات والأشجار واستخدموا أرضها في زراعة المحاصيل المختلفة.

وأهم ملوك هذه الأسر البيشدادية الحاكم ذائع الصيت جمشيد الذي يقال له أحياناً" جم " ويقولون أن هذا الملك كان يملك جميع العالم . وأخضع البشر كلهم لطاعته، وأنه كان يتحكم في العالم عن طريق كأسه المشهورة التي يستطيع أن يرى من خلالها جميع أرجاء العالم. وهذه الكأس الجمشيدية مازال ذكرها يتردد في القصص والشعر حتى الآن.

كما ادعوا بأنه أمر بصنع مركبة يحلق بها في الآفاق ليتفقد أرجاء إمبراطوريته العالمية دون مشقة وعناء فصنعت له هذه المركبة، وحملته الجن فطاف بها العالم، وعند عودته هلل الناس لعودته واعتبروا هذا اليوم عيداً كبيراً لهم، وهو عيد النيروز الذي يحتفل به الإيرانيون حتى اليوم ويعتبرونه عيدهم الأكبر، وسيرد عنه الحديث بالتفصيل في أثناء الحديث عن الحضارة بعد ذلك، لأنه على الرغم من ارتباط نشأة هذا العيد بأسطورة جمشيد إلا أنه ظل محل حفاوة الإيرانيين واحتفالهم حتى اليوم.

ومن الأعمال التي يسندونها إلى جمشيد كذلك تقسيمه الخلق إلى طبقات وكأنه سبق فلاسفة اليونان بهذا التقسيم، وهذه الطبقات هي : طبقة الملوك وكبار الأمراء – طبقة رجال الدين – طبقة المحاربين وأخيراً طبقة الحرفيين والعمال.

ومن الملوك الذي يذكرونهم بالفخر في هذه الحقبة الأسطورية الملك أفريدون الذي صوروه على أنه ثار ضد الضحاك[1]، واستطاع أن يحقق

---

(١) الضحاك :الملك الخامس من ملوك الأسرة البشدادية، اتسم بالقوة والجبروت وسفك دماء الأبرياء .لذا ادعى عليه الإيرانيون أنه من أصل عربي حميري، وثب على عرش اليمن وأقصى أباه عنه، ثم تقدم بجيوشه العربية واحتل أرض إيران، وتعقب جميع أفراد البيت المالك

انتصاراً عليه بمساعدة حداد يدعى كاوه كان يرتدي مرقعة جلدية تحمي صدره من تطاير الشرر. وفي يوم ثورة الضحاك استخدم كاوه مرقعته الجلدية هذه علماً جمع وراءه المطالبين بالحرية والاستقلال، ولذا أسمى هذا العلم باسم (درفش كاوياني) أي علم الكاوياني. وقد ظل هذا العلم موضع احترام الإيرانيين وتقديسهم حتى وقع في أيدي القوات العربية الإسلامية في موقعة القادسية حيث أمر الخليفة عمر بن الخطاب بتوزيع ثمنه على المقاتلين. ومن الثابت أن هذا العلم كان له وجود حقيقي في إيران حتى الفتح الإسلامي مما يثبت أن العصر الأسطوري كانت تكتنفه بعض الحقائق وإن كانت كقطرة في بحر من الخرافات والأساطير.

وقد احتفل الإيرانيون بنصرهم على الضحاك في عيد جديد استحدثوه، كما استحدثوا من قبل (عيد النوروز)، وهذا العيد الجديد أطلقوا عليه (المهرگان) ومازال يحتفل به حتى اليوم.

ثم يسندون إلى أفريدون أنه قسم العالم بين أولاده الثلاثة: تور وأعطاه بلاد الترك، وسام وأعطاه بلاد الروم، وإيرج وهو أصغرهم جميعاً وخصه بالعاصمة، مما أوغر صدر أخويه فقتلاه، وهكذا تفسر لنا الأسطورة لماذا بدأت سلسلة المعارك المتصلة بين الجنس الآري المنتسب إلى إيرج بن أفريدون، وبين الجنس التوراني المنتسب إلى تور بن أفريدون، وقد أنتجت هذه المعارك شعوراً بالعداء بين الجنسين استمر طوال عصور التاريخ الحقيقية سواء قبل الإسلام أو بعده.

الإيراني بالقتل إلا أن والدة أفريدون استطاعت إخفاءه حتى شب وأدرك مسئوليته، فتقدم مع كاوه ويؤيده الشعب الإيراني، مما مكنهم من القضاء على الضحاك الذي أصبح مضرب أمثال الإيرانيين في القوة والجبروت، وأصبح العداء مستحكماً بين الإيرانيين، وبين سلالة الضحاك وجنسه وهم العرب.

وإذا كان تاريخ البشداديين قد ارتبطت أساطيره بملوكه، فـإن الدولـة الأسطورية الثانية وهي الدولة الكيانية، قد ارتبطت أكثر ما ارتبطت بالأبطال الأسطوريين وبالشخصيات الاجتماعية التي لعبت دوراً هاماً في إيران لا في عصرها الأسطوري فحسب، بل في تاريخها الطويل حتى اليوم، وفـي آداب الإيرانيين عبر الأزمنة المختلفة، ومن أهم الشخصيات التي برزت في ظـل هذه الدولة الكيانية:

١ - (زردشت) وهناك خلاف كبير في زمن وجوده . وإن قال البعض بأنه وجد أثناء حكم الكيانيين واتصل بملوك هذه الدولة.

٢ - البطل القومي رستم.

أما عن زردشت، فسيكون الحديث عنه باستفاضة عند الحـديث عـن العقيدة الإيرانية في التاريخ الحقيقي، لأن هذه العقيدة هي التي سادت جميـع الأراضي الإيرانية طوال عهود التاريخ الإيراني قبل الفتح الإسلامي، ومازال قليل من البشر وبخاصة في الهند يدينون بها حتى اليوم، ولهذا آثرت أن أرجئ الحديث عن زردشت ومذهبه حتى عصر التاريخ الحقيقي لإيران، وأكتفي هنا بالحديث عن رستم بطل أبطال العصر الأسطوري الذي تجسدت في شخصه شهامة الإيرانيين ضد أعدائهم التورانيين، وليس معنى هذا أن رستم هو البطل الأسطوري الوحيد في هذا العصر الأسطوري، بل هناك قائمة تضم عـددا آخر من الأبطال، ولكن رستم يقف على رأس هذه القائمة، ولـذا سنخصـه بالحديث، ولاشك في أن المزيد من الاطلاع يعد الوسيلة المفيدة والمرجوة للتعرف على الأبطال القوميين الآخرين في تاريخ إيران ليس الأسـطوري وحده بل خلال التاريخ الحقيقي كذلك.

رستم:

يعد رستم بطل أبطال الشاهنامة وإيران دون منازع، وبه يفاخر الإيرانيون حتى الآن في شعرهم وقصصهم، ومازال مضرب أمثالهم في الشجاعة كعنترة بن شداد في الأدب العربي مثلاً، وقد أحيط تاريخه بالكثير من الخوارق والخرافات التي صورته في صورة تعلو بني البشر وتجعل منه أسطورة مهيبة على الدوام وقد لازمته الأساطير منذ اليوم الأول لولادته حتى اليوم الذي فارق فيه الحياة .

فقالوا إن والده دستان بن سام بن نريمان والملقب باسم زال[1] كان يتولى ممالك الهند أثناء غيبة جد رستم وهو سام بن نريمان، وخرج ذات مرة للصيد قرب كابل (في أفغانستان حالياً) فلقيه ملكها مهراب بالترحاب، وكان لمهراب هذا فتاة جميلة تدعى روذابة. وكان داستان قد وقع في عشقها حتى قبل أن يراها لكثرة ما سمع عن جمالها، وبعد أن نزل ضيفاً على مهراب ورأى روذابة زاد عشقه وحبه، وتمنى أن يتزوجها، ولكن كيف يستطيع الإقدام على هذا الأمر، ومهراب من نسل الضحاك عل يوافق ملك إيران على أن يتزوج أحد أتباعه وهو دستان بن نريمان من ابنة أحد أعداء الإيرانيين وهو مهراب؟ لابد من بذل المزيد من الرجاء والاستعطاف لدى ملك إيران حتى يأذن له بإتمام هذه الزيجة التي يتوق لها قلبه.

وهنا تدخل سام والد دستان وتوسط لدى ملك إيران وكان يدعى في ذاك الوقت "منوچهر" الذي قبل إتمام هذا الزواج على مضض وذلك لأنه

---

(١) لذا يعرف رستم بأنه ابن زال أو بأنه ابن دستان، وزال ودستان اسمان لرجل واحد .

كان يعتمد على سام في تصريف بعض أمور الدولة والقضاء على أعـداء الدولة الإيرانية.

وأخيراً تم هذا الزواج الذي كانت نتيجته إنجاب بطل أبطال إيـران رستم بن زال.

ولكن هل يكون الإنجاب أمراً عادياً، أم يحـاط أيضـا بـالخوارق والأساطير؟

ادعى الإيرانيون أن الإنجاب كان أمراً صعباً، وكم تعثرت أمه فـي وضعه، حتى عجز الجميع عن إتمام عملية الولادة بالطرق المعروفة فـي ذلك الوقت، وفجأة حلقت العنقاء[1] فوق المجتمعين حول أمـه، وأشـارت عليهم بأن يشقوا خصر أمه ثم يمسحوا عليها ببعض الأدوية التي وصفـته لهم... وهكذا كانت ولادته تمثل أول عملية قيصرية في تاريخ بني البشر.. ولكي يحيط الإيرانيون هذه القصة بهالة من التصديق ادعـوا أن ولادتـه تعثرت لأنه يوم ولادته كان يماثل في الحجم غلاما فـي العاشـر ة مـن عمره، لذا لم يكن من الممكن ولادته ولادة طبيعية، وحتى يؤكـدون هـذه الرواية، ذكروا أنه كان يتناول اللبن من عشر مرضعات، أما عن سـبب تسميته برستم، فيقول البعض بأن جده هو الذي اختار له هذا الاسم، وقال آخرون بأن والدته بعد أن أنجبته قالت وهي تتنهد "برستم" أي تخلصت أو تحررت فعرف الوليد بعد هذا باسم رستم .

وبعد أن وصل رستم إلى سن الثامنة بلغ مبلغ الرجال، فكان ذا جثة ضخمة لا يقوى على حملها إلا فيل، لذا لم يكن أي فرس يستطيع حملـه، فكانت هذه مشكلة تواجهه، حتى عثر أخيراً على فرس جـامح، يسـتطيع

---

(١) طائر وهمي، يقول البعض بأن ظله إذا وقع على أحد أصبح ملكاً، وهو فـي الفارسـية بمعنى "سيمرغ" .

حمله، فاتخذه فرساً له وأطلق عليه اسم (رخش) أي (البرق)، ولازمه هذا الفرس حتى آخر يوم في حياته .

وبعد أن بلغ رستم مبلغ الرجال أصبح مضرب الأمثال في الفروسية والشجاعة ولا يقوى أحد على مجابهته ومناضلته، ولكنه لم يستغل هذه القوة وذلك الجبروت لفرض سيطرة شخصية، والحصول على مزايا خاصة وإتاوات، بل وجه هذه القوة لخدمة وطنه إيران .

وهنا يبدأ الدور الواضح الذي أحال رستم إلى بطل قومي إيراني عبر العصور فقد انتهز التورانيين ألد أعداء البيت الإيراني فرصة اضطراب الأحوال السياسية في إيران، وبدءوا في التطاول على الحدود الإيرانية بعد وفاة الملك البيشدادي منوچهر حيث تولى الملك ابنه نوذر الذي كان عاكفا على اللهو والعبث فوجد التورانيون في ضعفه الفرصة للانقضاض على إيران، وانتهى الأمر بأن تقوض البيت البيشدادي وتولى الحكم في إيران أسرة حاكمة أخرى تتصل بالأسرة الأولى وتعرف باسم الأسرة الكيانية، وأثناء هذا الاضطراب زاد التورانيون من تطاولهم، فكان لزاماً على الإيرانيين إعداد العدة للقضاء على هذا الخطر الداهم، وكان يلزمهم في ذلك قائد عظيم وبطل مغوار يستطيع أن يقود الراية الإيرانية، فكان هذا البطل العظيم يتمثل في رستم بن زال، وهنا تقدم لكي يقوم بدور عظيم خلده التاريخ القديم والحديث.

تقدم رستم لمقابلة القائد التوراني البطل أفراسياب، وهجم عليه، وأوشك أن يقضي عليه ويفتك به، ولكن أصحاب أفراسياب تدخلوا في العراك واستطاعوا إنقاذ أفراسياب من براثن رستم، ثم سارعوا بالفرار منهزمين أمام الإيرانيين بقيادة رستم ثم أرسلوا بعد ذلك في طلب الصلح،

الذي كانوا يبغونه أملاً في التقاط الأنفاس استعداداً لمعارك أخرى كبيــرة بين الجانبين.

ونتيجة لانتصار الإيرانيين بقيادة رستم، فقد أنعم عليه الملك كيقبــاد بولاية ممالك زابلستان حتى بحر السند.

وبعد وفاة كيقباد تولى ابنه كيكاوس الحكم، وكان هذا الملك الجديــد يتسم بالتسرع فأقدم على فتح مازندران على الرغم من نصــيحة الأمــراء والقواد له بالعدول عن ذلك ونتيجة لهذا التسرع وعدم الاستعداد وقع فــي الأسر هو وعدد كبير من جنده، كما أصيب بالعمى، وأمام هذه الخطر الذي أحاق بالبيت الإيراني كان لزاماً على رستم أن يســارع بإنقــاذ مليكــه، والحفاظ على هيبة البلاط الإيراني، وكان أمام رستم ليصل إلى مازندران طريقان أحدهما مأنوس ولكنه بعيد ويحتاج إلى وقت كبير، وطريق آخــر قصير يستغرق أسبوعين فقط ولكنه مليء بالمخاطر. فاختار رستم الطريق القصير الصعب، ومر فيه بأهوال عظيمة، وعقبات جسام. وصل عــددها إلى سبعة أخطار، لذا عرف هذا الطريق باسم هفتخوان رستم أي طريــق رستم ذو المراحل السبع، وتفصيل هذه المراحل كما يلي :

المرحلة الأولى : سار رستم يطوي البراري والقفار ليل نهار لا يغمض له جفن، حتى أنهكه التعب، فاصطاد حماراً وحشياً وشواه وأكله ثم نام في ظل شجرة فأقبل عليه أسد يريد افتراسه، فوقعت معركة بــين الأسد وفرس رستم المعروف باسم (رخش) وانتهى النزال بمقتــل الأسد ونجاة رستم، وبذلك نجا رستم من أول عقبة في الطريق .

المرحلة الثانية : كاد رستم يموت عطشاً، وقد بحث كثيراً عن أي نبع ماء فلم يجد حتى وجد غزالة تمضي صوب نبع ماء فسار في أثرها ثم

اصطاد حماراً وحشياً وأكله وهكذا تخلص من عطشه وجوعه. ثـم نام تحت شجرة يستظل بظلها .

المرحلة الثالثة : في أثناء نومه خرج عليه من تحت الشجرة ثعبان ضـخم فتاك، فسارع حصانه بإيقاظه ووقعت معركة كبيرة بين رستم وهذا الثعبان الضخم انتهت بمصرع الثعبان وانتصار رستم وتخلصه من العقبة الثالثة.

المرحلة الرابعة : واصل رستم المسير حتى وصل إلى واد للسحرة فوجدهم يتناولون طعامهم، فذهب إليهم، فلما رأوه فروا هـاربين وتركـوا الطعام، فأكله رستم ثم وجد عوداً فأخذه وترنم بأغنيـة، فسـمعته ساحرة، فسارعت بالتزين حتى تستطيع خداعه والفتك به، ولكنـه استطاع أن يكشف خداعها ويقتلها.

المرحلة الخامسة : اعترض طريقه ملك اسمه "أولاذ" فأسره رستم وطلـب منه أن يرشده إلى مقر "سبيد ديو" (الشيطان الأبيض) وهو زعـيم الشياطين والذي كان موكلاً بحراسة كيكاوس وعدم السـماح لأي فرد بالاقتراب منه، طلب منه أن يرشده إلى هذا المقر مقابـل أن يؤمنه على حياته ويوليه مازندران إذا تمـت الغلبـة للإيـرانيين، فأجابه أولاذ إلى كل مطالبه، وأخبره بأن بينه وبين كيكاوس مائـة فرسخ، ومائة فرسخ أخرى إلى مقر سبيد ديو. فصمم رستم علـى مواصلة المسير لإنقاذ كيكاوس وقتل سبيد ديو .

المرحلة السادسة : في الصباح هاجم رستم معسكر الجن وقتـل الكثيـرين منهم ثم عاد إلى جبل اسفروز حيث فك وثاق أولاذ وطلب منه أن يخبره عن مكان كيكاوس، فتقدمه راجلاً يدله على الطريق، حتـى دخل رستم المدينة التي أسر فيها كيكاوس، وصهل جـواد رسـتم

فسمع كيكاوس صوته وأدرك أن رستم قد جاء فبشر أصحابه بذلك، ثم دخل رستم حيث يوجد الملك وأنقذه من الأسر .

المرحلة السابعة : وهي الأخيرة. اقتحم رستم غار سبيد ديو بعد أن عبـــر سبعة جبال وعرة، وقتله وأخرج كبده وكحل عين كيكاوس بدمها، فارتد إليه بصره وبعد ذلك عاد رستم مع كيكـــاوس إلـــى إيـــران، ولكنهم في الطريق حاربوا ملك مازندران واستطاعوا القضاء عليه، ثم أسندوا أمرها لأولاذ، كما وعده رستم بذلك .

كانت هذه المعارك أهم المعارك البطولية في حياة رستم لما اكتنفهـــا من صعاب جمة، ولكن إلى جانبها كانت هناك معارك أخرى خاضها رستم ضد أعداء إيران، ففي عهد كيخســـرو التقـــى الإيرانيـــون بـــالتورانيون واستطاع التورانيون التغلب على الإيرانيين، فما كان من كيخســـرو إلا أن طلب من رستم أن يهب لإنقاذ جيش البلاد الذي أوشك على الفناء، فما أن وصل رستم إلى ساحة الوغى حتى هلل الإيرانيـــون فرحـــاً واستبشـــاراً، وتحولت هزيمتهم نصراً، واستطاع رستم القضاء على قـــواد التورانيـــون واحدا تلو الآخر وعلى رأسهم أفراسياب.

وعلى الرغم من أن رستم كان عماد ذلك العصر الخرافي، وبطله بلا منازع، فإن حياته قد اكتنفتها مأساتان، أولاهما مأساته مع ابنه ســـهراب، وثانيهما مع أخيه شغاذ.

أما مأساة رستم مع ابنه سهراب فهي أفجع ما ورد في الشاهنامة من المآسي، فقد خرج رستم ذات يوم للصيد حتى وصل إلى حدود توران، وقد أصاب صيداً وافراً فأكثر من الشواء والأكل حتى غلبه النوم، فمر به قوم فوجدوا الفرس وحيداً فأخذوه إلى بلدتهم سمنجان، فلما استيقظ رستم مـــن نومه لم يجد فرسه فأخذ يقتفي أثره حتى وصـــل إلـــى ســـمنجان هـــذه، فاستضافه ملكها، وتعرف رستم في هذه الليلة على ابنة هذا الملك، وكانت

نتيجة هذا التعارف ولدا اسمته أمه سهراب، وقد أعطى رستم ابنة الملك هذه خرزة لتضعها على يد مولودهما إذا جاء ذكراً فيتعرف عليه إذ قدر له التعرف به ولما كبر سهراب تعلم الفروسية كأبيه، وكان سهراب هذا يعمل لحساب ملك التورانيين ثم حدثت معركة بين الإيرانيين وبين التورانيين فتوجه سهراب على رأس الجيش التوراني لملاقاة الإيرانيين بقيادة والده رستم، لأن أحدهما لم يكن يعرف الآخر والتقى الجندان وكثر القتال والقتل، حتى التقى الأب بابنه واستل كل واحد منهما سيفه وترجلا عن فرسيهما واحتدم بينهما القتال، فكانت الجولة الأولى لصالح الابن، ثم جاءت الجولة الثانية واستطاع رستم الفتك بابنه سهراب، فلما دنا أجل الابن ذكر ما أوصته به أمه من ضرورة البحث عن أبيه، فما أن سمع رستم هذا الكلام حتى أظلمت الدنيا في وجهه، إذ نظر فوجد في عضد سهراب تلك الخرزة التي أعطاها لأمه من قبل، وتيقن عند ذلك أنه قتل ولده بيده، فأخذ يندبه ويشق عليه الصدر، ثم رجع بعد ذلك إلى زابلستان يحمل ولده وقتيله سهراب في تابوته حيث دفنه في موطنه.

أما المأساة الثانية فقد لقي رستم حتفه فيها على يد أخيه غير الشقيق شعاذ، فقد كان شعاذ يعمل في خدمة ملك كابل الذي فرض عليه رستم خراجاً كبيراً، فاتفق ملك كابل وشعاذ على الخلاص من رستم بالحيلة والدهاء، فوجه شعاذ الدعوة إلى أخيه رستم لزيارة كابل وحفر في طريقة عدة آبار غرزت في قيعانها النصال الممددة والحراب المشرعة ثم غطيت هذه الآبار، ولما أقبل رستم بفرسه وقع في بئر منها فتمزق جسده وأصيب إصابات خطيرة قضت عليه.

وهكذا مات رستم ميتة مأساوية، حتى يستمر إعجاب الإيرانيين وتحسرهم على فقدانه، ولهذا مازالوا يذكرونه بالخير والإكبار، ويضربون به المثل في التضحية والفداء، لذا فإن كتب الأدب تردد اسمه على الدوام في مجالات الفخر والإقدام، كما حيكت حوله العديد من القصص الشعرية، وكذلك بعض المسرحيات التي تعرض من وقت إلى آخر على خشبة

المسرح الإيراني، وكأن رستم مازال يعيش بين الإيرانيين، أو كأنه شخصية حقيقية لها وجود في واقع الحياة، ولم يكن شخصية أسطورية .

التاريخ الحقيقي لإيران القديمة

قبل الحديث عن فترة التاريخ الحقيقي لإيران القديمة، يجب أن نسلم بأن هذه الفترة غير محققة تحقيقاً تاريخياً كاملاً، وليس كل ما ذكر عنها يعد يقيناً، ولكن المقصود من أنها فترة تاريخ حقيقي، هو أن لها وجوداً إما في الآثار المؤكدة أو الأخبار المحتمل قبولها وتصديقها، وعلى هذا فإن الفترة الأسطورية تغلب عليها الأباطيل والأساطير والخرافات، بينما هذه الفترة الحقيقية يختلط فيها التاريخ بالأسطورة ويمتزجان معاً، ويحاول الباحث أن يستخلص التاريخ من الشوائب والأساطير التي تبعده عن الحقيقة، وعماده في ذلك ما خلفته هذه العصور الحقيقية من آثار وأسانيد يمكن الاعتداد بها، والاعتماد عليها في الوصول إلى الحقيقة، بقدر توفر هذه الأسانيد والحجج.

وأول ما يتبادر إلى الذهن في هذه الفترة هو الحديث عن أصل السكان الذي عاشوا في إيران قديماً. وهل كانوا نازحين إلى تلك الديار أم سكانا أصليين وجدوا في هذه الأرض منذ أقدم العصور ؟

لاشك أن أراضي إيران كانت تسكنها بعض القبائل القديمة منذ فجر التاريخ وعن هذه القبائل والجماعات وردت إلينا الأساطير السابقة، ثم مع بداية التسجيل التاريخي نجد أن إيران قد تلقت موجات من الهجرات من المناطق المجاورة ومن هذه الجماعات المهاجرة هجرة الآريين الذين كانوا يسكنون الصحاري الغربية والجنوبية في سيبريا، ثم حدث أن هبت موجات من البرد الشديد وتساقطت الثلوج بغزارة حتى جدبت المزارع وجفت المحاصيل، فاضطروا إلى الهجرة جنوباً حيث الدفء وسهولة الحياة،

فهاجرت جماعات صوب أوروبا، وهم الذين يسكنون ألمانيا ووسط أوروبا الآن، وجماعات أخرى اتجهت صوب الهند عن طريق أفغانستان، وجماعات ثالثة سلكت طريقها صوب بحر مازندران (قزوين) وما يليه من أراض، وهي التي عرفت بعد ذلك باسم إيران أي أراضي الجنس الآري .

ولم يكن تواجد المهاجرين الآريين في أراضي إيران أمراً سهلاً، فقد دخلوا في حروب عديدة مع السكان الأصليين لهذه الأراضي ومنهم العيلاميون، ولكن نتيجة لقسوة الحياة في مناطقهم الأخرى، فقد تعلموا البأس والشدة واستطاعوا الاستقرار في الأرض الجديدة، وذلك لأن العودة إلى مناطقهم القديمة معناها هلاكهم من البرد والجوع، لذا كان قتالهم مع السكان الأصليين قتالاً بين حياة أو موت.

وبناءً على هذه الأقوال، فإن سكان إيران ينقسمون إلى جنسين، الجنس الأول وهو الآسيوي الخالص والذي كان يسكن الهضبة الإيرانية في الأصل حتى تعرضت أراضيه لهجرات جماعية من الجنس الآخر، وهو من أصل أطلق عليه الجنس الهندي الأوروبي .

وإذا تناولنا الجنس الأول منها بالدراسة، فإننا نجد أن الأخبار التي وردت عنه غاية في الندرة وعدم الوضوح، وليست محققة على وجه اليقين، وأهم جماعات الجنس الأسيوي تتمثل في مجموعتين هما: الكاسيون والعيلاميون .

سكان إيران قبل الهجرات الآرية

(١) الكـاسيـون

كان الكاسيون من المجموعات البشرية الأولى التي سكنت إيـران، وذلك خلال القرون السابقة على تشكيل الأسرتين الميدية والبارسية، ففـي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ورد في كتابات أولاد حمـورابي الحـاكم البابلي الشهير تعقب الكاسيين في حملة كان على أثرها فرار جماعات من سكان مناطق الكاسيين ومركزهم في جبال زاجرس وكردستان الحالية إلى بابل بحثاً عن وسيلة للعمل كعمال زراعيين، ولكن هؤلاء الكاسيين تمكنوا إبان القرن الثامن قبل الميلاد من الإغارة على بلاد الآشوريين واحتلالهـا فترة من الزمن، وصلت إلى حوالي ٥٧٦سنة، ولعل هذه أطول فترة احتلت فيها بابل على أيدي غزاة أجانب .

وهؤلاء الأقوام الذين هم من أصل آسيوي قد اختلطـوا بعـد ذلـك بالمهاجرين الهندو أوروبيين. ومن الأمور التي كانت تحظى بالأهمية لدى الكاسيين عنايتهم بالخيل واعتمادهم عليها في مظاهر الحياة المختلفة وفـي الحروب، وقد نقلوا هذا الأمر إلى بلاد النهرين عندما احتلوها .

وقد كانت مدينة همدان تعرف قبل مجيء الميديين إليها باسم (كاسيا) أو (أكاسيا) وذكرت في الألواح الأشورية باسـم (كاركاسـي) أو مدينـة الكاسيين، ولما كان بحر قزوين ينسب إلى الكاسيين، لذا فإن هـذا البحـر يعرف عند الأوروبيين باسم بحر كاسين (Caspian Sea) . وهذا يفيد أن هذه القبائل الكاسية كانت تسكن جميع المناطق المهمة في غرب وشـمال إيران .

ومن المؤكد أن الآريين الذين هاجروا إلى إيران (ومنهم الميـديون والبارسيون) قد دخلوا في عراك شديد مـع هـؤلاء الكاسـيين، وكانـت الحروب بينهم حروب حياة أو موت لذا فإن نقـوش الآريـين تصـورهم بصورة المردة الشياطين، فكانت ترسم اللوحات التي تمثل حروباً طاحنـة تدور بين الآريين النازحين وبين الشياطين، والمقصـود بالشـياطين هـم الجماعات الكاسية التي كانت تسكن إيران قبل مقدم الآريين إليها .

(٢) العيلاميون

من الدول التي كان لها وجود تاريخي ولعبت دوراً كبيراً في تاريخ إيران قبل مقدم العناصر الآرية إليها، دولة عيلام، ولحسن الحظ فقد توفرت لدى المؤرخين بعض المعلومات عن هذه الدولة أكثر من تلك المعلومات التي توفرت عن الكاسيين. ومع هذا فسنكتفي بإشارات عن هذه الدولة والدور الذي قامت به قبل مقدم الآريين إذ كانت الحروب متعددة بينهم وبين ساكني بلاد النهرين من بابليين وآشوريين وغيرهم .

وأماكن تمركز العيلاميون في المناطق التي تعرف الآن باسم خوزستان، وكانت عاصمتهم مدينة شوش التي أصبحت كذلك عاصمة شتوية للإمبراطورية الهخامنشية فيما بعد ونظراً للظروف البيئية التي توفرت لهم في مناطق خوزستان ووفرة المياه فيها وذلك لوجود نهر كارون (قارون)، فإنهم أول من بنوا المدن واستقروا، وذلك لأن الزراعة تهيئ للمزارعين الاستقرار ، بعكس الكاسيين الذين كانوا يسكنون مناطق جبلية، فكان الترحال وعدم الاستقرار طابع حياتهم ولعل استقرار العيلاميين وبناءهم للمدن وفر لهم حضارة أكثر رقياً من الكاسيين، وغيرهم من سكان مناطق إيران الأخرى، ولاشك أن استقرارهم ساعدهم على تشكيل دولة لها كيان ووجود وعاصمة محددة .

ويقال أن بداية المدينة العيلامية تصل إلى الألف الرابع قبل الإسلام، ولاشك أن الدول التي قامت في بلاد النهرين مثل دولة السومريين والأكديين والبابليين والآشوريين، قد تركت بصماتها واضحة على الحضارة العيلامية، ومع هذا فكان للعيلاميين دورهم المستقل في صياغة سمات أخلاقهم وعاداتهم ومذاهبهم. فعلى الرغم من أن الآلهة البابلية كانت

تعبد في عيلام، إلا أنهم كانت لديهم آلهتهم المحلية التي كانت موضع تقديسهم واحترامهم .

ولا شك كذلك في أن العيلاميين تولى أمرهم في كثير من الأوقات ملوك أشداء استطاعوا أن يصمدوا أحياناً ضد التوسع البابلي والآشوري، بل استطاعوا في بعض الأوقات احتلال أجزاء من الإمبراطورية البابلية نفسها.

وكانت دولة عيلام تضم كلاً من خوزستان ولرستان وجبال بختاري وشيكوه (إيلام الحالية) وتمتد من ناحية الغرب حتى حدود نهر دجلة، ومن الشمال حتى حدود صحراء كاروان، وتمتد جنوباً بمحاذاة الخليج حتى مدينة بوشهر الحالية ومن ناحية الشرق كانت تضم جزءاً من فارس الحالية.

ويعتقد المؤرخون أن كلمة عيلام لفظة سامية وتعني (جبلي)، وأن البابليين هم الذين أطلقوا عليهم اسم عيلام، أما العيلاميون أنفسهم فكانوا يطلقون على دولتهم اسم (آنزان شوشونكا)، ويقال إنهم كانوا يستخدمون اللغة السومرية واللغات السامية طوال قرون عديدة امتدت منذ الألف الثالث قبل الميلاد إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد .

وكان الخط العيلامي خطاً مسمارياً، ولعلهم اقتبسوه من السومريين، ولكن العيلاميين أدخلوا عليه بعض التغييرات والتجديد.

ومن الملاحظ أنه بعد القضاء على العيلاميين في عام ٦٤٥ ق.م، آثر حكام الإمبراطورية الهخامنشية السكنى في مناطق العيلاميين، ولاشك أن حضارة العيلاميين أثرت في جميع الحضارات الإيرانية التي قامت بعدهم، وامتد تأثيرهم حتى الدولة الساسانية نفسها .

الجنس الآري في إيـران

(١) الميديون ٧٠٨ ـ ٥٥٠ ق.م

انقسمت الجماعات الآرية التي نزحت إلى أرض إيران إلـى ثـلاث مجموعات توجهت كل مجموعة منها إلى منطقة واستقرت بها، قد توجـه الفرع (الميدي) من بين هؤلاء المهـاجرين صـوب كردسـتان وهمـدان وأذربيجان واستقر بها. وتوجهت جماعة (بارس) إلى قلب إيران وجنوبها واقاموا بالمنطقة التي عرفت باسمهم فيما بعد ذلك وهي منطقـة فـارس، والتي علا شأنها حتى أصبحت اسماً لإيران كلها في فترات تاريخية كثيرة. أما الجماعة الثالثة من هؤلاء المهاجرين الآريين والتـي تعـرف باسـم (بارت) فقد اتجهت صوب الشمال الشرقي لإيران وسكنت تلـك المنطقـة التي تعرف حالياً باسم (خراسان) .

وقد عاشت هذه الجماعات في صورة قبائل متفرقة فترة طويلة مـن الزمن، وذلك لأنها كانت هجرات متفرقة، وليست في صورة جيش موحـد للاحتلال وإنشاء دولة وسيادة، وأمام تفرقها تعرضت للكثير مـن هجـوم الدول المحيطة بها، فتعرض الميديون لهجمات شرسة من الآشوريين فـي أرض العراق، وكانت بلادهم وثرواتهم نهباً دائماً لهذه الغزوات، مما دفـع مشايخهم ورؤسائهم إلى الاتحاد فيما بينهم والتصـدي لهـؤلاء المغيـرين وأخيراً نجحوا في الاستقلال عن الآشوريين، ثم زادت شوكتهم وقوضـوا دعائم الدولة الآشورية.

وقد اتخذ الميديون مدينة هكبتانة (أكباتانا) – (همدان الحالية) عاصمة لهم، وكان أول ملوكهم هو ديا اكـو (ديوسـيس) الـذي انتهـز فرصـة الاضطراب في الدولة الآشورية وأعلن قيام الدولة الميدية والاستقلال عن الدولة الآشورية. وبدلاً من أن يتوجه الحاكم الآشوري لمحاربة الميـديين

وإعادتهم إلى سيطرة آشور، فإذا به يتقدم للحاكم الميدي طالباً منه العون والمساعدة ضد أعداء الدولة، فكان هذا اعترافاً رسمياً بقيام الدولة الميدية، وهذا الاعتراف كان نصراً عظيماً للجنس الآري الذي كون أول دولة مستقلة له في غربي إيران.

ولما تولى فروريتش الحكم بعد ديا اكو زاد من رقعة الدولة الميدية حيث تطلع للسيطرة على الأجزاء الجنوبية من إيران وهي منطقة فارس التي كان يسكنها البارسيون، واستطاع هذا الحاكم إخضاعهم لسلطانه فأعلنوا دخولهم تحت حكم التاج الميدي. وفي أثناء حكم فروريتش ثارت الحرب بين ميديا وآشور، وأثناء التحام الجنود استطاع أحد الاشوريين قتل حاكم ميديا مما جعل الضعف يدب في قلوب جنوده فآثروا الانسحاب من المعركة مهزومين .

وتولى الحكم بعد ذلك هواخشتر (كيخسرو) ابن فروريتش، فأعاد تنظيم الجيش واعتنى بتدريب الجند، وصمم على أن يأخذ بثأر أبيه، فاتصل بدولة بابل في جنوبي العراق واتفق معهم على مهاجمة دولة آشور في شمال العراق واستطاع الجيش الميدي بمساعدة البابليين القضاء على الحكم الآشوري وإسقاط عاصمتهم نينوا بعد حصار دام فترة طويلة، ثم أعملوا فيها القتل والتخريب حتى لحقها الخراب والدمار بعد أن كانت لفترة من الزمن مركزاً للسياسة العالمية في ذلك العصر .

وبعد المعركة قسمت أراضي آشور بين الدولتين المنتصرتين، وهما الدولة الميدية والدولة البابلية، فامتدت حدود ميديا حتى آسيا الصغرى حيث كانت تحكم دولة (لودية) فوقعت بين الدولتين حروب كثيرة استمرت ست سنوات، ثم تم الصلح بينهما .

وأخيراً تولى حكم تلك الدولة الفتية حاكمها الرابـــع ايختـــو ويكـــو (استياجس) الذي ورث العرش دون حروب، لذا لم يحسن الحفاظ عليـــه، حيث أخذ يميل إلى الترف واللهو، ونسي أنه مسئول عن دولة فتية تضـــم ميديا وفارس وآشور، وأنها تحتاج إلى عيون للحفاظ عليها، ونتيجة لنهجه هذا زادت الفوضى في البلاد، وتفككت وحدتها، وأخذت البلاد الخاضـــعة لسلطانه تحاول الخروج عليه، وأخيراً ثار ضده ابنه الأكبر كوروش والذي كان يحكم انشان (فارس) فقضى على الدولة الميدية، وأسس دولة جديـــدة هي الأكمينية أو الهخامنشية التي استطاعت أن توحد تحت تاجهـــا جميـــع أجزاء إيران لأول مرة في تاريخ إيران، بـــل وتكـــون أول إمبراطوريـــة إيرانية عظيمة ضمت تحت سيطرتها جميع بلاد الشرق المعروفة في ذلك الوقت .

(٢) الإمبراطورية الهخامنشية "الأكمينية" ٥٥٠ _ ٣٣٠ ق.م

ذكرنا من قبل أن بعض القبائل الآرية قد استقرت في منطقة جنوبي إيران، وهم جماعات بارس وقد أطلق اسمهم على المنطقة فعرفت باسم منطقة بارس أو فارس، وعاشوا في بداية أمرهم قبائل متفرقة، كما حدث مع جماعات الميديين قبل أن يكونوا دولتهم، ونتيجة لتفرقهم استطاعت الدولة الميدية بعد تكوينها بسط نفوذها على منطقة فارس وفرض سيطرتها على البارسيين .

وبعد فترة من الزمن شعر البارسيون بأن فرقتهم جلبت لهم الضعف والسيطرة الأجنبية، فبدأت تظهر محاولات للوحدة بين القبائل المتفرقة إلى أن استطاع أحد زعمائهم ويدعى هخامنش بسط نفوذه على معظم القبائل الموجودة في منطقة بارس، وبدأ يكون أول وحدة سياسية بين الجماعات الآرية المهاجرة إلى تلك المنطقة، وبدأ يكون جبهة تستطيع مناوءة الحكم الميدي، وتنزع إلى الاستقلال متى واتتها الفرصة .

وبعد هخامنش تولى الحكم ابنه جيش شي الذي استطاع الاستيلاء على أجزاء من أراضي العيلاميين وضمها إلى فارس، ثم قسم بلاده من بعده إلى بين ابنيه، فكانت بارس تحت امرة ابنه آريارمنه، أما منطقة انشان فكانت من نصيب الابن الثاني كوروش وحرص هذان الابنان في البداية على إعلان تبعيتهما للملك الميدي، وإن كانا في الحقيقة يتمتعان بالاستقلال، ولكي يظهر كوروش احترامه للملك الميدي وتبعيته له، فقد زوج ابنه كمبوجيه (قمبيز) من ابنة ملك ميدي وهو ايختو ويكو (استياجس) ونتج عن هذا الزواج غلام تسمى على اسم جده البارسي

كوروش الذي تولى أمر منطقة انشان بعد وفاة أبيـــه، وبفضـــله تحولـــت الإمارة إلى إمبراطورية عظيمة لذا عد المؤسس الحقيقي للدولة الهخامنشية.

(١) كوروش ٥٥٠ ـ ٥٢٩ ق.م

احتفل الإيرانيون منذ حوالي ثلاثين عاماً بذكرى مرور ألفين وخمسمائة عام على تولي كوروش عرش فارس وإيران وتأسيسه أول إمبراطوريات العالم القديم، وكان احتفالاً ضخماً مهيباً شاركت فيه معظم بلدان العالم وحضره عدد كبير من الرؤساء والملوك. فمن كوروش هذا، حتى يستحق كل هذا التكريم ؟

يقول كوروش عن نفسه: أنا كوروش ملك العالم، الملك الكبير، ملك تونانا، ملك بابل، ملك سومر وأكد، ملك أطراف العالم الأربعة، ابن كمبوجيه، الملك الكبير ملك انشان، حفيد كوروش ملك انشان الكبير، ومن سلالة مالكة لا تزول، عندما أتيت إلى بابل وأنا في كامل قوتي أقمت حكومتي فيها بين الأفراح والاحتفالات، وكانت الجيوش التي لا يحصى عدد أفرادها لا تلاقي في المدينة أية مقاومة، ولم أسمح لأي شخص أن ينشر الرعب والخوف في ارض سومر وأكد، لقد رفعت أغلال أهل بابل، وعمرت بيوتهم الخربة، ووضعت حداً لسوء أحوالهم وأعدت جميع الناس إلى مساكنهم وأعدت لهم آلهتهم ومنازلهم .

والآن يجب علينا أن نتناول سيرته منذ تولي ملك انشان حتى فارق الحياة مخلفاً وراءه إمبراطورية مترامية الأطراف .

يرد اسم كوروش في عدة صور منها (كورو) أو أكوروس أو (قوروش) أو (كوراش) أو (كوريش) أو (كورس) وعند الروم سيروس، لذا نجده يعرف في أوروبا الآن على أنه (سيروس) أو (سايروس)، وأشهر هذه الأسماء كلها كورش أو قورش .

وبعد وفاة كمبوجيه (قمبيز) ارتقى كورش عرش انشان معلناً تبعيته للملك الميدي ولكنه بعد فترة من الوقت شعر بمدى الظلم الفادح الذي يلقيه

حكام ميديا على كواهل أهل انشان، فثار كورش ضد جده استياجس ودخل في حرب طاحنة مع الجيش الميدي انتهت بانتصار المظلومين وهزيمة الدولة الميدية وانحسار سلطانها عن انشان، وقد شجع هذا الانتصار كورش على التقدم صوب العاصمة الميدية اكباتانا واحتلالها، وهكذا أسقط الدولة الميدية وكون إمبراطورية تضم كلاً من فارس وميديا وكذلك أجزاء من أراضي الآشوريين والعيلاميين وبدأت تظهر في الشرق الأوسط دولة فتية، تهدد أمن الإمبراطوريات القائمة أمثال الآشوريين والبابليين والمصريين واللوديين في آسيا الصغرى .

أمام هذه الدولة الفتية الجديدة، بدأت دول المنطقة تحاول التعاون فيما بينها، فحاولت كل من لودية وبابل ومصر عقد معاهدات دفاع مشترك للتصدي لخطر كورش والقضاء على دولته قبل أن يستفحل خطرها وتقوض دعائم تلك الدول واحدة تلو الأخرى .

عندما علم كورش بهذا الحلف العسكري، أدرك أنه لا يستطيع محاربة الدول الثلاث مجتمعة، لذا آثر أن يلجأ إلى الحيلة والخداع، ويحارب كل دولة من الثلاث على حدة فعقد معاهدة صلح مع بابل ليأمن جانبها، وجانب مصر أيضاً حيث أن أراضي بابل كانت فاصلاً بين ملك الفراعنة وملك الدولة الخامنشية الجديدة، ثم توجه بجيشه بعد ذلك إلى مملكة لودية في آسيا الصغرى، ودارت معركة حامية بين الجيشين حول عاصمة اللوديين وهي مدينة (سارد) وانتهت المعركة بانتصار الجيش الإيراني وخضوع حاكم لودية. وهنا تبرز عظمة كورش كمحارب وفارس يحترم خصمه المهزوم فلم يفعل بأرض لوديا ما تفعله الجيوش المنتصرة عادة من سلب ونهب وتخريب، بل أمر بحسن معاملة ملك لودية وجعله

أحد مستشاريه، وأمر كذلك باحترام السكان المهزومين وعدم الإساءة إليهم، وألا يصيبهم ظلم يثير سخطهم على الفاتح الجديد .

بعد أن اطمئن كورش على فتح لودية آثر الإسراع بالعودة إلى العاصمة بازاركاد في فارس، حتى لا تطول فترة غيابه، فيتيح الفرصة لأي طامع في الحكم للثورة ضده، ولكي يعد جيشاً جديداً يستعد به لمحاربة خصم جديد ممن كان قد هادنهم قبل محاربة اللوديين، وأعني به البابليين، فعاد كورش إلى العاصمة وخلف وراءه جزءاً من جيشه في لودية وأمره بمواصلة الزحف صوب بلاد اليونان لإخضاعها لسلطان كورش كذلك، فحقق الجيش المهمة التي كلف بها، وهكذا اتسعت رقعة الدولة الهخامنشية حتى شملت آسيا الصغرى كلها وبعض جزر اليونان .

استراح كورش فترة في عاصمة ملكه، وأعاد تنظيم جيوشه، وأخذ يتحين الفرصة سانحة للانقضاض على الدولة البابلية، فواتته الفرصة حين نما إلى علمه أن سكان بابل يتضجرون من تعنت ملوكهم، ويضيقون بقوتهم، كما يشاركهم هذا الضجر جماعات اليهود الذين نقلوا للعيش في بابل أيام السبي البابلي الذي تعرضت له أورشليم، فأعلن كورش أنه لا يقبل أن يجاوره شعب يئن ويتوجع من مظالم حكامه، فجهز جيشه وتقدم به صوب مملكة بابل وحاصر العاصمة إلى أن تم له دخولها بعد فترة من الزمن، وما أن دخلها حتى أمن جميع السكان سواء أكانوا أصليين أم نازحين على حياتهم وممتلكاتهم ولم يأخذ أسيراً واحداً، ولم يجبر أحداً على ترك دينه، بل احترم آلهة بابل، كما حرر الأسرى اليهود وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين مرة أخرى، كما يقول مؤرخو فارس .

أما قصة هؤلاء اليهود فقد كانوا يقومون قبل السبي البابلي بدور الجاسوس المزدوج بين فرعون مصر وحاكم بابل، مما جعل الحرب تطول

بين الفريقين وأخيراً شعر كل حاكم مصر وحاكم بابل بالدور الذي يلعبه اليهود، فصمم كل منهم منفرداً على الفتك بهؤلاء اليهود الذين أجادوا تطبيق نظرية فرق تسد لفترة طويلة، فكانت يد ملك بابل أسبق في الوصول إلى هؤلاء اليهود فعصف بهم وشردهم، ونقل كل ذي فكر أو حرفة إلى بابل، لكي لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، وهذا ما عرف تاريخياً باسم السبي البابلي .

ولكن بعد أن نقل اليهود للعيش في بابل، لم يكفوا عن حبك المؤامرات فاتصلوا بكورش وأغروه بالتقدم نحو بابل إذ سيكونون طابوراً خامساً يساعدونه في سهولة الاستيلاء على بابل ثم الانطلاق منها إلى الشام ومصر بعد ذلك، وستكون مساعدتهم له في مقابل السماح لهم بعودتهم إلى فلسطين، فوعدهم كورش بعودتهم إلى فلسطين إذا ما انتصر على الملك البابلي، فكان هذا الوعد شبيهاً بوعد بلفور في القرن العشرين وهكذا نلاحظ أن اليهود كانوا يتعاونون مع أي قوة استعمارية، لتحقيق أغراض سياسية يتطلع إليها اليهود، ولا يستطيعون الوصول إليها بقوتهم الذاتية، كما هو حاصل الآن. كما نلاحظ أن ادعاء كورش بأنه تقدم ليكف عن البابليين طغيان ملوكهم هو ادعاء كاذب، وإنما تقدم كورش معداً من قبل وينتظر أي فرصة سانحة ليتذرع بها ويسقط بابل كما أسقط لوديا قبلها .

ولكي يؤكد كورش أنه قد جاء إلى بابل منقذاً لا غازياً، فقد أصدر في بابل أول وثيقة لحماية حقوق الإنسان، وقد عثر على الحجر الذي نقشت عليه تلك الوثيقة عام ١٢٥٨هـ أي منذ قرن تقريباً، ويفتخر الإيرانيون بهذه الوثيقة ويعتبرونها أول وثيقة عالمية لحماية حقوق الإنسان، ويكبرون كورش لإصدارها.

وقد بر كورش بوعده لليهود المتآمرين معه، فقد أصدر في العام الأول من حكمه لبابل مرسوماً بإعادة اليهود إلى أورشليم والسماح لهم ببناء معبد هناك وكذلك إعادة الأواني الذهبية والفضية التي نقلت أيام السبي البابلي إلى أورشليم مرة أخرى، وفعلاً عاد في عام ٥٣٧ ق.م أربعون ألف يهودي تحت قيادة زروبابل إلى أورشليم، ورافقهم موظف فارسي ليشرف على تنفيذ أوامر الملك. وهكذا نرى أن وعد بلفور كان بمثابة إحياء لوعد كورش .

ما أن فتح كورش بابل، حتى دانت له جميع أراضيها التي تصل إلى البحر الأبيض في الشام وهكذا استطاع أن يقوض دعائم مملكتين من مناوئيه، ولم يعد أمامه إلا قوة المصريين، ولكنه آثر ألا يواصل السير إليهم من الشام. بل يلزمه العودة إلى بازارجاده ليلتقط أنفاسه، وليخمد فتنة حدثت في شرقي إيران، وبعد أن جهز جيشاً كبيراً تقدم نحو الممالك الشرقية وأخضعها كلها لسلطانه، ولكن في نهاية الأمر طعنه أحد جنود الأعداء طعنة نافذة أدت إلى وفاته، فخسرت إيران بوفاته علماً من كبار حكامها وأبطالها وذلك في عام ٥٢٩ ق.م .

(٢) كمبوجيه (قمبيز) ٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م

كانت وفاة كورش المفاجئة، ودون تحديد لولي العهد مدعاة للفتن والاضطرابات داخل البيت الهخامنشي، فقد خلف كورش وراءه ابنين أولهما قمبيز (كمبوجيه) وكان يتولى أمر بابل بعد أن تم الاستيلاء عليها، وثانيهما سمرديس وكان يشرف على أمور الولايات الشرقية .

وبعد وفاة كورش كان الناس يفضلون سمرديس لكي يخلف أباه في حكم الإمبراطورية الفتية نظراً لاتسامه بحصافة الرأي وحسن التدبير أما كمبوجيه فكان مريضاً بالصرع لذا كانت تصدر عنه الكثير من الأفعال التي لا تتسم بالتعقل والتدبير، فزادت مظالمه. ولكن كمبوجيه انتهز فرصة قربه من العاصمة في فارس وتوجه بسرعة وأعلن نفسه خليفة لوالده، كما دبر خطة ليخلو له الجو تماماً من أي مناوئ حيث استطاع اغتيال أخيه سمرديس، وهكذا أصبح الوريث الوحيد لعرش الهخامنشيين كما أنه قبل أن يفيق الناس من هول سفك دم سمرديس، سارع بفتح جبهة حربية جديدة، حتى يفرغ الناس لأخبار المعارك، وينسوا الاضطرابات الداخلية والثورة ضده لاغتياله أخيه سمرديس، وكانت هذه الجبهة هي تقدمه لفتح مصر .

وقصة فتح كمبوجيه لمصر ترتبط بالحالة السياسية في كل من مصر والدولة الهخامنشية، أما ما يخص منها الدولة الهخامنشية، فقد كانت النية معقودة على مهاجمة مصر منذ أيام كورش، ولكن الموت أدركه قبل أن يحقق هذه الأمنية، والتي إذا كانت قد تحققت لكان معنى ذلك نجاح كورش في القضاء على الدول الثلاث التي حاولت التحالف ضده وهي لوديا وبابل ومصر، فقد نجح في احتلال لوديا وبابل، ثم قتل قبل أن يفتح مصر، لذا ما أن تولى كمبوجيه عرش إيران حتى سارع بتحقيق هذا الأمل، لما فيه من

قضاء على الفتن الداخلية التي تولدت بعد موت كورش، وبعد اغتياله لأخيه سمرديس، كما سبق أن ذكرنا.

أما فيما يخص مصر، فقد كانت الأحوال السياسية فيها مضطربة بعد وفاة أحمس وقد انتهز الجنود المرتزقة الفرصة وعاثوا في مصر فساداً، كما كانت الصلات الودية مقطوعة بينهم وبين المصريين، حتى أن أحد قادتهم واسمه فانيس فر من مصر والتحق بجيش كمبوجيه، وأطلعهم على جميع أسرار الجيش المصري مما سهل مهمة الجيش الهخامنشي في دخول مصر واحتلالها .

أعد كمبوجيه جيشاً جراراً وأفاد من وشاية فانيس وتقدم من فلسطين إلى مصر عبر سيناء، ووصل إلى يلوزا (بور سعيد) ولم يدم حصارها طويلاً حتى نجح في فتحها ثم تقدمت الجيوش مسرعة نحو ممفيس وأسقطها، ويقال أنه سفك دم فرعون مصر في ذلك الوقت وهو ابسماتيك الثالث، كما قال البعض بأنه اكتفى بإلقاء القبض عليه وأودعه السجن في منطقة شوسن .

ويمكن أن نلخص أسباب هزيمة المصريين في النقاط التالية :

١ - كان الجيش المصري أغلبه من المرتزقة، لذا لم يكونوا حريصين على الدفاع والموت في سبيل استقلال مصر .

٢ - هروب أحد القواد المرتزقة وهو فانيس وإطلاعه الجيش الهخامنشي على كل أسرار الجيش المصري، مما ساعد الإيرانيين على معرفة مواطن الضعف في الجيش المصري واستغلالها لصالحهم .

٣ - كانت الحالة السياسية مضطربة في مصر بعد وفاة أحمس، ولم يكن ابسماتيك على دراية وقدرة على تنظيم الجيوش، بعكس كمبوجيه الذي

كان يعد لهذه الحملة كل عدتها من جند وأسلحة، منذ اليوم الأول لتوليه الحكم .

٤ - يقال أن كمبوجيه لجأ إلى حيلة خبيثة تستند على تقديس المصريين لبعض الحيوانات حيث أمر هذا الحاكم الهخامنشي جيشه بأن يضعوا في مقدمة الصفوف بعض الكلاب والقطط وبعض الحيوانات المقدسة المصرية، فكان المصريون يتحرزون من إطلاق السهام على مقدمة الجيش الهخامنشي، حتى لا تصاب هذه الحيوانات المقدسة بأي سوء، فكانوا يتقهقرون أمام الجيش الهخامنشي وهكذا انتصر الإيرانيون بالخديعة والحيلة .

٥ - المساعدات التي قدمها اليهود للجيش الإيراني، فكما ساعد اليهود كورش في دخول بابل ووصوله حتى الشام فإنهم ساعدوا كمبوجيه في استيلائه على مصر حيث أمدوه ببعض المعلومات عن دروب سيناء حيث كانوا قد سلكوا طرقها أثناء رحيلهم من مصر إلى فلسطين، والدليل على التعاون المشبوه بين اليهود والجيش الفارسي المستعمر تلك اللوحة التي وجدت جنوبي أسوان، والتي تثبت أن الحامية الفارسية الموجودة هناك لم تجد أي تعاون من المصريين لتوفير احتياجاتهم اليومية، فتقدم اليهود لتوفير هذه الاحتياجات، فكانوا خير من ساعد الفرس على تثبيت دعائم سيطرتهم في مصر، بعد أن واجههم المصريون بالرفض والازدراء.

أخيراً استتب الحكم لكمبوجيه في مصر، فحاول في بداية الأمر التظاهر بالود والتسامح، كما تظاهر باحترام ديانة المصريين وطقوسهم، ولم يعتد على حرماتهم، ولعله كان يفعل ذلك حتى تقبل عليه قلوب المصريين، فيطمئن إلى جانبهم، حيث كان يفكر في مواصلة الزحف جنوباً

نحو السودان وغرباً نحو تونس، ولكنه هزم في الجبهتين، ومـن أسـباب هزيمته في تونس أن بحريته المكونة من جنود فينقيين رفضوا أن يحاربوا أبناء عمومتهم أبناء تونس. وهنا يبرز دور الوحدة العربية، وجدواها فـي التصدي لكل عدو خارجي !

بعد أن هزمت جيوش كمبوجيه فـي الجنـوب والغـرب أصـبحت محصورة في الأراضي المصرية، وقد أدى هذا إلى حالة هيـاج شـديدة اجتاحت كمبوجيه وعاد إليه صرعه، مما دفعه إلـى إيقـاع ظلـم شـديد بالمصريين تمثل في قضائه على عجل أبيس وتحطيمه لمعبد آمون، وقتله وتشريده للعديد من المصريين، مما جعلهم ينفرون منه ويتمنون الفتك به .

كما أن هزيمته في جنوب مصر وغربها أحيت جراحاً كان قد تركها في وطنه ورحل مع الجيش إلى مصر، هذه الجراح تتمثل فـي سـفكه دم سمرديس وإخفاء جثته، فبدأ الناس في فـارس يتسـاءلون عـن مصـير سمرديس، وماذا أصابه فانتهز الفرصة أحد المتطلعين إلى الحكم، وادعـى بأنه سمرديس وأنه كان قد تخفى خوفاً من بطش أخيه كمبوجيـه وانتظـر حتى سنحت الفرصة أمامه وعاد إلى الظهور مرة أخرى ليطالب بحقه في العرش .

وصلت هذه الأخبار إلى كمبوجيه في مصر، فسارع بالتوجه صوب عاصمة بلاده ليخضع هذه الثورة الجامحة، وليقضـي علـى سـمرديس الكذاب، فتقدم في الطريق حتى وصل إلى أراضي بابـل، وهنـا تختفـي أخباره، وتتضارب وتنتهي جميعها بأنه انتهى، ولكن هل بالقتل، أم بالموت أم بالهروب من مسرح الأحداث السياسية، فالبعض يقول عنه أنه عنـدما أدرك أن قوة خصمه تفوق قوته بمراحل آثر الهروب والاختفاء في الجبال والفيافي حتى مات، وقال البعض بأنه دخل معركة مع جند سمرديس قتـل

فيها، وذكرآخرون بأنه أثناء سير لملاقاة سمرديس أصابته نوبـــة صـــرع شديدة قضت عليه، وهكذا خلا الجو مؤقتاً لسمرديس مما ساعد على فساد الأحوال السياسية في جميع أجزاء الإمبراطورية إلى أن ثار عليه أمـــراء البيت الهخامنشي بقيادة دارا الأول وقضـــوا عليـــه، وولـــوا دارا عـــرش الإمبراطورية الهخامنشية .

(٣) دارا الأول (داريوش الكبير) ٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م

بعد أن ظفر دارا بعرش الإمبراطورية الهخامنشية، شعر بأن أمامه مهاماً جساماً تتطلب منه سرعة الحركة وعزيمة صادقة وهذه المهام بعضها بالداخل وبعضها بالخارج، فقد تولى العرش والأمور غاية في الاضطراب من جراء فتنة سمرديس الكذاب، فبدأت الولايات المحيطة بفارس تعلن العصيان والتمرد، فثارت كل من بابل وميديا وآشور وارمينية كما ساد التذمر مصر، وبدأت رياح الثورة تجتاحها ضد مظالم أعوان قمبيز الذين خلفوه على حكمها .

فكان أمام دارا طريقان طريق القوة وطريق المهادنة، فآثر ألا يفضل أحدهما على الآخر، بل استعمل السلاحين معاً، فمن كانت المهادنة والتصالح يجدي معهم عاملهم برفق ولين كما ظهر من معاملته للمصريين ومن لم يفلح معهم سلاح الوئام والسلام آثر أن يقابلهم بالشدة والجبروت كسكان أرمينية وبعض الجزر اليونانية، ولنستعرض بالتفصيل ما فعله لاسترجاع هيبة الإمبراطورية في الداخل والخارج .

أما في الداخل، فقد حاول استقطاب النزاع على العرش والانتهاء من آثار الفتن والمظالم التي أحدثها سمرديس وأعوانه وبدأ ينظم علاقة الحاكم بالمحكومين وكان عماد هذه العلاقة الحب والإخلاص في خدمة المجتمع بما فيهم الخاصة والعامة. وأعلن إيمانه بالدين الزردشتي والعمل على نشره بين الفرس جميعاً، والقضاء على كل المذاهب الأخرى التي توجب تفكك الشعب الإيراني نظراً لتعدد مذاهبه ومعتقداته، كما أعاد الحقوق لأصحابها، ولكي يوفر الرخاء لمواطنيه فقد أوجد انفتاحاً اقتصادياً مع جميع الشعوب المجاورة، ومهد الطرق التي تربط بين العاصمة وبين هذه الأقاليم، حتى تنساب التجارة في سهولة ويسر، ويشعر الإيرانيون بريساع

الرخاء تهب عليهم بمقدم دارا الكبير. ونتيجة لهذه الإصلاحات وغيرها التف حوله الإيرانيون ونصروه وأعلوا من شأنه مما ساعده على الاستعداد لمجابهة الأخطار الخارجية .

أما في الخارج، فقد وردت الأنباء بأن المصريين متذمرون من حكامهم الإيرانيين لما يجدونه من قسوة وعنت، فسارع دارا إلى مصر وأقصى الحاكم الإيراني وأمر بمحاكمته وعقابه، وهدأ من ثورة المصريين وشاركهم في جنازة عجل أبيس، وأمر ببناء عجل جديد لهم، كما أمر بتشييد معبد جديد لآمون، وأعاد الحياة إلى المدرسة الطبية المصرية، وأوفد عدداً من الإيرانيين للتعلم في هذه المدرسة، ولكي يوثق الصلة السياسية والتجارية بين فارس ومصر فقد مد طريقاً برياً بين البلدين لتكون القوافل مستمرة بين البلدين، كما أعاد حفر قناة السويس لتنشط الحياة الاقتصادية في مصر وليسهل التجارة بين بلدان البحر الأبيض وبلاد فارس وما يجاورها. وهكذا كسب ود المصريين وحبهم له، وهكذا أيضاً ضمن جبهة مصر دون سفك الدماء .

أما الجبهة الشرقية فقد قاد حملة صوب البنجاب في الهند وبسط نفوذه على تلك الديار، كما بسط نفوذه على أفغانستان، وأعاد الهدوء إلى كل الأجزاء الشرقية من مملكته، وبعد أن اطمئن إلى هدوء الشرق بدا يفكر في الاتجاه صوب آسيا الصغرى ومنها إلى أوروبا .

ففي آسيا الصغرى والمستعمرات اليونانية ثارت الفتن ضد الحكم الإيراني، وحاولتا الاستقلال ولم تجد معهم محاولات الود، فجرد حملة كبيرة دخلت آسيا الصغرى وأعادت الهدوء إليها، ولم يكتف بذلك بل عبر البسفور سنة ٥١٢ ق.م واستولى على تراقيا ثم عبر الدانوب، ولكنه انسحب قبل تدعيم المغانم التي اكتسبها لأن المساعدات التي قدمت من

الولايات اليونانية الأصيلة إلى تلك المستعمرات اليونانية الثائرة في آسيا الصغرى دفعته إلى الدخول في معارك جديدة، فقام بحملتين على بلاد اليونان في ٤٩٢، ٤٩٠ ق.م وانتهت المناوشات والمعارك بين الجانبين بموقعة ماراثون، حيث كان دارا قد تمكن من إنزال عشرين ألف جندي فارسي على ساحل منطقة ماراثون، فأرسل من يعدو عدو الماراثون الشهير يحذر إسبرطة من الهجوم الفارسي، وهكذا استعدت له وقضت عليه، ولحقت الهزيمة بالجيش الفارسي، فلم يجد دارا بداً من أن يؤجل محاولته قهر اليونان، ولكنه لم يجد الفرصة لمعاودة الهجوم حيث توفي عام ٤٨٦ ق.م .

بعد أن أمن دارا الحالة السياسية في الداخل والخارج، بدأ يعمل على تنظيم العمل لتلك الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء التي تمتد شرقاً حتى الهند وغرباً حتى اليونان وجنوباً حتى حدود مصر الجنوبية، فكانت إمبراطورية تحتاج إلى نظام دقيق يكفل سير الأمور فيها بسهولة ويسر، فقد ولـى دارا نفسه ملكاً فعلياً على كل من فارس وبابل ومصر، وهي عصب الإمبراطورية الهخامنشية، ثم قسم باقي أجزاء الإمبراطورية إلى عشرين ولاية، عرفت كل واحدة منها باسم (ستربي) وكان الوالي عليها يطلق عليه لقب (سترب) .

وهكذا نجد في الدولة الهخامنشية ملكاً أعظم ويلقب بـ (خشاترا) وهو الحاكم المطلق وصاحب الكلمة الأولى على جميع حكام الولايات والقائد الأعلى للقوات المسلحة. أما حكام الولايات فقد عين إلى جانب الحاكم الإداري الملقب باسم "سترب" اثنين مساعدين يساعدانه أحدهما قائد لجيش الإقليم، يكون مسئولاً عن استتباب النظام في إقليمه والتصدي لكل عدو خارجي حتى تصله الإمدادات العسكرية من الحكومة المركزية،

ثانيهما كاتب يتولى اطلاع الملك على أخبار الإقليم أولاً بأول، كما يكتب إليه سراً بكل تحركات أمير المنطقة وقائد الجند بها، ولكي يضمن عدم اتفاق الثلاثة ضد الحكومة المركزية فقد جعل الثلاثة في مرتبة واحدة، وليس لأحدهم فضل على الآخرين، حتى إذا حاول أحدهم الانفراد بالحكم خاف الاثنان على مكانتهما، فتصديا له وراسلا الملك الهخامنشي في العاصمة بما حدث بمجرد وقوعه. وبهذا فقد نجح دارا الأول في توفير الأمن والطمأنينة لجميع الأقاليم الخاضعة لسلطانه طوال مدة حكمه التي استمرت ما يقرب من ستة وثلاثين عاماً.

خلفاء دارا الكبير

بعد وفاة دارا الأول عام ٤٨٦ ق.م لم يحسن خلفاؤه الحفـاظ علـى الدولة الهخامنشية، بل آثروا الركون إلى الترف واللهو والعبث وجني ثمار انتصارات الآباء والأجداد دون العمل على تدعيم هذا النصر بنصر جديـد وفتوحات جديدة، والنتيجة الحتمية لهذا التواكل والإهمال أن تسير الـبلاد نحو الانهيار تدريجياً. وهذا ما حدث حتى أن الإمبراطورية لم تعمر أكثر من قرن واحد انهارت بعده على يد الإسكندر المقدوني .

فقد تولى عرش إيران بعد دارا الأكبر اكزرسيس (خشايارشاه) الأول وقد أسرف في اتخاذ الزوجات والمحظيات، وفعل أفراد الحاشـية مثلـه، فبدأت الدولة تتحلل من الداخل، قبل أن تتعرض لأي هجمة خارجية، وهذا أخطر على أي أمة، من أي عدو خارجي، مما أدى إلى هزيمـة الجـيش الإيراني على أيدي الجنود اليونانيين في موقعة سلاميس في عام ٤٨٠ ق.م

وبعد أكزرسيس تولى عرش الدولة ثمانية ملوك، كانت الدولة أيامهم تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم، وآخر هؤلاء الملوك كـان دارا الثالـث الـذي قضى عليـه الإسـكندر المقـدوني عـام ٣٣٠ ق.م. وقـوض دعـائم الإمبراطورية الهخامنشية وأصبحت إيران بعد ذلك ولايـة تابعـة لحكـم الإسكندر المقدوني .

تاريخ إيران بعد الدولة الهخامنشية

(أ) الإسكندر المقدوني في إيران

يقال أن بعض جزر اليونان كانت تدفع الخراج إلى دارا الأكبر، وكان والد الإسكندر نفسه لا يتخلف عن ذلك، ولما تولى الإسكندر عرش البلاد واستطاع أن يتغلب على منافسيه ويفتح بعض ولايات الغرب ويشعر بقوته، رأى أنه من العيب أن يؤدي الخراج إلى دارا الثالث كما كان يفعل أبوه مع دارا الأكبر، فامتنع عن إرساله فشعر دارا الأصغر بالحنق من الإسكندر فبعث إليه يوبخه ويتوعده ويهدده بالهلاك وبالدمار عن لم يواصل إرسال الخراج، ويقال أن بلاد اليونان كانت تدفع كل يوم الخراج في صورة بيضة من الذهب، فأرسل الإسكندر إلى دارا يخبره بأن الدجاجة التي كانت تبيض ذهباً قد ذبحت، ولذا فلن تدفع اليونان خراجاً بعد ذلك .

فلما وصل إلى دارا كتاب الإسكندر جمع جنده وتأهب لمحاربته. فتأهب الإسكندر كذلك وسار بجنده نحو بلاد دارا، والتقى الجندان فكانت الهزيمة من نصيب دارا الأصغر، ويقال أن حاجبيه عندما شعرا بهزيمته أقدما على قتله تقرباً إلى الإسكندر، فعندما علم الإسكندر بأن حاجبي دارا قد طعناه أسرع إليه والتقى به قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وسأله حاجته ليلبيها له قبل أن يودع الحياة، فسأله دارا أن يقضي له حاجتين: الأولى أن يتزوج ابنته (روشنك) فتزوجها الإسكندر، والثانية أن يقتص من حاجبيه، فأحضرهما وأمر بهما فقتلا، فقد كان رأي الإسكندر أنه لا ينبغي لقتلة الملك أن يظلوا على قيد الحياة، حتى لا يفعلا معه مثلما فعلا مع مليكهما دارا الثالث .

كما قال البعض أنه لما هزم جيش دارا الأصغر سارع بالفرار شرقاً خوفاً من الإسكندر فجد الإسكندر في طلبه، فتخفى دارا لدى زعماء بعض

قبائل المشرق ولكن لما علم هؤلاء الزعماء أن الإسكندر جاد في طلب دارا خافوا على أنفسهم وسارعوا بقتل دارا الأصغر وهكذا انتقل الحكم إلى الإسكندر المقدوني وقضي على الدولة الهخامنشية (الإكمينية) .

ويقال أن الإسكندر حمل كتباً وعلوماً كانت لأهل فارس وترجمها إلى السريانية ثم إلى الرومية بعد ذلك ليفيد بها أهل وطنه .

كما أن الإسكندر بعد أن أحكم قبضته على فارس أقدم على هدم الكثير من مدنها وحصونها وبيت النار فيها، وقتل رجال الدين وأحرق كتبهم، ثم ولى عليها رجالاً من أصحابه وسار بعد ذلك قدماً لكي يفتح الهند والصين فاستطاع أن يخضع لنفوذه بلاد الهند والتبت والصين، وبعد ذلك فكر في العودة إلى الإسكندرية مرة أخرى ولكنه مات في الطريق فحمله أتباعه إلى الإسكندرية والتي كان قد بناها وسميت باسمه .

والمتصفح للمراجع الفارسية يجد أنهم لا يهتمون بالعهد الإسكندري وذلك لأن الإيرانيين يعتبرون هذا العهد وما تبعه من عهود ملوك الطوائف فترة انحطاط في تاريخهم القومي. وعلى الرغم من هذه النظرة ومن أن الإسكندر قد غزا فارس والحق بها الكثير من الدمار إلا أن بعض المؤرخين ومنهم الفردوسي قد صوروا الإسكندر بصورة جميلة، وقالوا أنه عندما آل إليه الأمر أعفى الناس من الخراج خمس سنين ووعد بمساعدة الفقراء دون أن يكون في هذه المساعدة مساس بها في أيدي الأغنياء، وأي خلق أجمل من هذا الخلق الذي تنسبه الشاهنامة للإسكندر حين حضرته الوفاة إذ كتب إلى أمه يوصيها ألا تمسك من الأموال التي جمعها أكثر مما تحتاج إليه في قوتها وأن تفرق الباقي على المحتاجين .

ولعل سبب هذه الصورة الجميلة التي صور بها الشاعر الفردوسي الإسكندر المقدوني ما ادعاه الشاعر وغيره من المؤرخين الفرس من

انتساب الإسكندر إلى الإيرانيين حيث قالوا أنه أخو دارا الأصغر، وأن أباه دارا الأكبر كان قد تزوج ابنة ملك الروم، فلما حملت إليه وجد نتن ريحها وعرقها، فأمر أن يحتال منها، فاجتمع رأي أهل المعرفة على مـداواتها، وجاهد العلماء في مداواتها فأذهبوا الكثير من هذه الرائحة الكريهة وليست كلها، فعافتها نفس دارا الأكبر، فأمر بردها إلى أهلها ولكنهـا كانـت قـد حملت منه قبل عودتها إلى ديارها، فولدت ابنهـا فـي ديارهـا وأسـمته الإسكندر .

ولعل من ادعوا نسب الإسكندر إلـى دارا الأكبـر أرادوا بـذلك أن يمحوا عن الإيرانيين شر هزيمتهم أمـام الإسـكندر المقـدوني، فأصـبح الإسكندر بهذه النسبة منهم ولا يعيب الإيرانيين انهزامهم أمامه، ومـا دام الإسكندر إيرانياً في زعمهم فمن واجب شاعر كالفردوسـي أن يصبـوره بصورة جميلة في كتابه الشاهنامة .

وقد مات الإسكندر عن اثنين وثلاثين عاماً، فآلت البلاد التي فتحهـا إلى قواد من بعده فتولى أخوه فيليب عرش مقدونيا وتولى (برديكاس) أحد قواده حكم أسيا الصغرى فأراد هذا القائد أن يوحد سائر أملاك الإسـكندر في أسيا، فنشب نزاع حام بينه وبين سائر القواد المتقلـدين السـلطة فـي أجزاء مملكة الإسكندر في أسيا، وثارت الفتن حتى استطاع (سـلوكوس) أحد القواد أن ينتصر على جميع مناوئيه، وأن يجمع المر في يده ويفـوز بالسلطان في أسيا ويؤسس دولة السلوكيين نسبة إليه وهي التـي حكمـت إيران وسائر أملاك الإسكندر في أسيا من ٣١٢ إلى عام ٢٥٠ ق.م .

(ب) ملوك الطوائف

دولة الإشكانيين ٢٥٠ ق.م-٢٢٦م

بعد ذلك تولي حكم الممالك التي خلفها الاسكندر عدد كبير من الملوك عرفوا باسم ملوك الطوائف، فتولي الأشكانيون حكم العراق وايالات فارس والجبل وتولي اليونانيون الموصل والسواد وتولي الهياطلة بلخ وطخارستان وتولي الطراخنة خراسان ولكن الأشكانيين كانوا أكثر ملوك الطوائف شهرة وذلك لأنهم أولا من أصل الملوك وثانيا لأنهم تولوا حكم المنطقة الهامة في معترك الأحداث والقيمة التاريخية ويدعي البعض أن الأشكانيين هم أولاد دارا الأكبر، ويقول آخرون بخلاف ذلك فينسبونهم آلي اشكان بن كي أرس بن كيقباد، ويكتفي البعض بالقول انهم ربما ينتسبون آلي سلسلة السلاطين السابقين. وقد حكم الأشكانيون من عام ٢٥٠ق.م.ألي ٢٢٦ ميلادية.

ونظرا لعدم اهتمام المؤرخين بهم ولعدم استقرار الأحوال في زمانهم، فأن الاختلاف واضح بين في ذكر أنسابهم وأسمائهم وتقديم وتأخير وتحديد مدة سلطنة كل منهم، ويقول الطبري آن من حكم من هذه السلسلة هو" اشك بن اشكان" لذا عرفت الدولة باسم الأشكانية، كما تعرف باسم آخر وهو" البارثية " نسبة آلي المكان الذي نشأت فيه وهو بارث، وقد تقلد الحكم في هذه الدولة عدد كبير من الملوك أهمهم اردوان الأصغر، فقد قال عنه الطبري:" انه كان أعلم الأشكانية ملكا، وأظهرهم عزا، وأسناهم ذكرا، وأشدهم قهرا لملوك الطوائف، وأنه كان قد غلب علي كوره اصطخر لاتصالها بأصفهان ثم نخطئ الي جور وغيرها من فارس حتى غلب عليها، ودانت له ملوكها، وقد كان ملكه ثلاث عشر سنه ألي أن حكم بعده أردشير بن بابك مؤسس دولة الساسانيين.

والمتصفح لكتب التاريخ الإيراني وبخاصة الشاهنامة، يجد أن الفرس لا يهتمون بأخبار دولة الأشكانيين وذلك لأن هؤلاء كانوا بصفة عامة مـن أهل الحرب ولهذا لم يهتموا بأحياء التراث الإيراني والعمل علي حمايتــه، بل علي العكس مما كان ينتظر منهم فقد اتجهوا نحـو الثقافــة اليونانيــة كأسلافهم من خلفاء الاسكندر، حتى أن أغلب ملوك هذه الدولة يجيدون اللغة اليونانية وآدابها.

ويري الدكتور عزام في تعلقيه علي دول الشـاهنامة ان الأشـكانيين لتأثرهم بالحضارة اليونانية ولأن سلطانهم لم يكن شاملا لبلاد الفرس كلهـا لم تعن بهم الأقاصيص الفارسية بل جارت علي تاريخهم فسـلبتهم بعـض مفاخرهم وأبطالهم ووقائعهم ونسبتها الي الشـداديين والكيـانيين، فقـارن وكودرزوكيو وبيزن أبطال العهد الكياني عي الشاهنامة ليسوا آلا أمراء من الأشكانيين.

وبعد انتهاء عهد هذه الدولة، يأتي أزهي عصور التـاريخ الإيرانـي الحقيقي قبل الإسلام، وهو عهد الدولة الساسانية، ولكننا سنرجئ الحـديث تاريخ هذه الدولة الساسانية للعام القادم وننقل الآن آلي دراسة أهم مظـاهر الحضارة التي سادت إيران إبان حكم الدول التي تعرض لدراسة تاريخها، وبخاصة الإمبراطورية الهخامنشية.

التراث الحضاري الإيراني

أولا – التشكيلات السياسية :

ذكرنا من قبل أن العنصر الآري عنصر مهاجر آلي الهضبة الإيرانية، ولم تكن هذه الهجرات في صورة حملة عسكريا منظمة تمت في وقت واحد، وانما كانت هجرات إما فردية أو في صورة مجموعات صغيرة تعقبها مجموعات أخري، وكانت كل مجموعة منها تستقر في المكان الذي يروق لها العيش فيه إما لخلوه من قاطنين أصليين أو أنهم استطاعوا أخذه عنوة من هؤلاء السكان الأصليين. وقد مرت فترة طويلة علي هذا التشتت والتمزق آلي أن أجبرتهم الحاجة لتكوين دولة موحدة تمكنهم من الوقوف في وجه التعدي الآشوري والبابلي، وعلي هذا فان التشكيلات السياسية الميدية قبل تأسيس دولتهم الكبرى كانت تسير علي غرار نظام الطوائف، أما منت اصطلحنا علي تسميته في حضارة بلاد النهرين بدولة المدينة، حيث كان لكل طائفة أو مدينة كبرت أو صغرت نظامها السياسي المستقل، وكذلك نظامها الاحتماعي الخاص بها .

ولكن ما أن انتقلت الجماعات الميدية آلي الحكومة الموحدة أو بمعني أصح آلي حكومة الإقليم حتى بدأ نفوذ الحاكم المركزي يقوي بالتدريج علي حساب بقية حكام المدن الأخرى التابعة له. وليس معني هذا أنه قضي علي كل نفوذهم، بل انه أصبح بمثابة الحاكم الأكبر بين مجموعة من صغار الحكام، يتولى رئاستهم والتنسيق بنيهم، مع احتفاظ كل منهم بسلطته في إقليمه الأصغر، والدليل علي ذلك أن بعض هؤلاء الحكام المحليين والأمراء قد احتفظوا بولاياتهم ونفوذهم بعد سقوط الدولة الميدية نفسها، وبقيت هذه الولايات الصغيرة إرثا لذويهم من بعدهم.

ولا شك أن هذا النظام الميدى هو الذي كان سائدا في انشان وبارسي أيام أن كانت مجرد حكومة إقليمية صغيرة تدفع الخراج لميديا أو حتى بعد أن تغلبت علي ميديا وأصبحت تحكم جميع المناطق الغربية من إيران.

ولا شك أن هذا النظام السياسي أصابه تغيير كبير بتــولي كــورس عرش بارس وتمكنه بعد سلسلة من الحروب في الداخل والخارج تكــوين إمبراطورية واسعة الأرجاء تضم إيران كلها وبلاد النهرين والشام وآســيا الصغرى، فتحول من حاكم إقليم إلى إمبراطور تخضع له أكبر إمبراطورية في التاريخ القديم حتى ذلك العهد، ولكن موته السريع والمفاجئ لم يمكنــه من وضع أسس نظام سياسي راسخ البنيان، ولكن انشغال قمبيز بفتوحاتــه في مصر والنوبة وبعده عن العاصمة، وما تبع ذلك مكن فتنــة ســمرديس الكذاب، قد حرم قمبيز فرصة وضع نظام حكم واضع البنيان والمعالم.

وظل الحال كذلك الي أن تولي عــرش الهخامنشــيين الإمبراطــور داريويش الكبير فتمكن من إخماد الفتن والثورات في الــداخل والخــارج، ووسع دائرة نفوذه بفتح بلاد اليونان والهند. ثــم آن لــه الأوان أن يهــدأ ويستريح ويجني ثمار أعماله وبطولاته. ولا يمكن أن يحقق كل ذلك آلا إذا وضع نظاما دقيقا بمقتضاه جني ثمار فتوحاتة، والتمتع بفترة طويلــة مــن الحكم يسودها الهدوء والاستقرار، وتخلو من الفتن والثورات، وقد كانــت دعائم هذا الحكم تستند علي الدعائم الآتية:

(١) ملك الملوك :

قامت الدولة الفارسية علي الضفة الحربية، فلولا استعمال السيف لما قامت أو نشرت سلطانها في الشرق والغرب من إيران، ولهذا كان الملــك يلقب بلقب عسكري هو(خشاترا) أي المحــارب، ولكــون الإمبراطوريــة الفارسية قد ضمت العديد من الممالك السابقة كمصر والشام وبلاد النهرين

واليونان وغيرهم، فقد أطلق الملك الهخامنشي علي نفسه لقب(شاهنشاه) أي ملك الملوك، حتى يبدو أكبر من جميع الملوك المحليين الـذين يخضـون لسلطانه ويأتمرون بأمره.

وكان الأساس في الحكم أن الملك يملك ولا يحكم، ولكن هذا الأمر لم يكن واضحا حتى نهاية عصر داريوش الكبير، إذ كان كل مـن كـورس وقمبيز وداريوش يملكون ويحكمون، حيث كانت الدولة في دور التأسـيس والبناء ولكن عندما هدأت الحروب والفتوحات، وزادت خيرات البلاد نتيجة للخراج المتدفق علي الخزانة الإيرانية، أصبح بقية حكام الدول الهخامنشية يملكون فقط، ويتركون إدارة مقاليد الحكم لنوابهم وكبار قادتهم، أما هم فقد شغلوا لاحفلات والشراب والصيد والحب، آلي خلاف ذلك من الأمور التي تلهي الملك عن القيام بواجباته فتكون النتيجة وخيمة، حيث يدب الضـعف تدريجيا في الدولة آلي أن تسقط في النهاية.

وكانت سلطة الملك لا حدود لها، يأمر فيجاب، وليس من حق أي فرد في الدولة أن يعترض علي أمر صادر عن الملك، حتى ولو كان هذا الرأي مجافيا للصالح والمنفعة، وذلك لأن الإيرانيين كانوا يظنون أن الملك ظـل أهورامزدافي الأرض، وعلي هذا فهو لا يصدر أحكاما نابعة من وجدانـه، بل هي أحكام مملاة علية من الآلهة، ولذا فهو ليس موضع مسـاءلة عمـا يبدر منه من أعمال وأقوال.

(٢) الأمراء والنبلاء:

ألي جانب الملك كان يوجد عدد من الأمراء والنبلاء الذين يساعدونه في تسيير دفة الحكم، ويتولون تصريف شئون البرد أثناء انشـغال الملـك الملوك في فتوحات جديدة، وكان هؤلاء النبلاء ينتمون ألي الأسر الست أو السبع التي استطاعت أن تساعد داريوش الكبير في قضائه علي سـمرديس

الكذاب الذي ادعي أحقيته للحكم أثناء غياب قمبيز في مصر، ونتيجة لهـذا الفضل فقد أعطاهم داريوش كثيرا من الإقطاعيات والمناصب، وأشـركهم معه في تكوين مجلس البلاط، كما كان من حق أفراد هذه الأسر الـدخول آلي البلاط أو الخروج منه دون أذن سابق، وكان أفراد هذه الأسـر خيـر عون للملك الهخامنشي طالما كان قويا يستطيع أن يمسك بزمام الأمور، ولا يترك لهم فرصة للتسلط والإفساد،ولكن عندما ضعف الملوك بعد داريـوش وخشايرشا، زاد هؤلاء الأمراء والنـبلاء مكـن نفـوذهم، وأكثـروا مـن الامتيازات التي خصوا أنفسهم بها، مما جعل الظلم الاجتماعي يتفشى بـين المواطنين الإيرانيين وأصبح كل واحد منهم يعمل لحسابه الخاص أكثر مما يعمل للدولة أو لملك الملوك وأصبح همهم الأول والأخير الحصول علـي النفع الذاتي، والدليل علي ذلك ما حدث عند مهاجمة الاسكندر للأراضـي الإيرانية، فقد تقدم بعض هؤلاء النبلاء من خاصة الملك، وعرضوا علـي الإسكندر الفتك بداريوش الثالث في مقابل الإبقاء عليهم وعلي مصـالحهم، فوافقهم الاسكندر علي طلبهم، حتى تخلصوا من داريوش الثالث، ثم تخلص منهم بعد ذلك.

وهكذا كان هؤلاء النبلاء عاملا قويا في تدعيم الدولة أيام داريـوش الأول، كما كانوا عاملا هاما في تقويض دعائمها في أيام داريوش الثالث.

(٣) حكام الأقاليم:

كانت الإمبراطورية الهخامنشية متسعة الأرجاء، تمتد شرقا حتى الهند وغربا حتى ساحل شملا أفريقيا وترتفع لكي تضم آسيا الصـغرى وبـلاد اليونان، ولا شك أن هذه الدولة المترامية الأطراف لا يمكن لفرد واحـد أن يصرف أمورها، وعلي هذا توصل داريوش لوضع نظام دقيق يمكنه مـن حكم كل هذه الأقاليم وهو مقيم في إيران، وهذا النظام اعتمد علـي تقسـيم

الإمبراطورية آلي عدة ولايات، ذكر البعض بأن هذه الولايات وصل عددها الي ثلاثين ولاية، وذكر آخرون بل عشرين ثم عين علي رأس كل ولايـــة حاكما إيراني الجنسية أطلق عليه اسم (سترب). وأعطاه صلاحيات كثيــرة في تسير دفة الحكم، بحيث لا يرجع آلي الحكومة المركزية آلا في الأمور الجسام، ولكن داريوش الحريص، خاف أن تستقل أحد الولاة بولايته، فقـد نزع منه الأشراف علي الأمور العسكرية، داريوش قائدا خاصا لكل ولاية، علي أن يكون هذا القائد غير خاضع للوالي الإقليمي، بل بتلقي أوامره من داريوش نفسه، وعلي هذا لا يكون للحكام سلطان عليه، ولم يكتف داريوش بذلك، بل دفعه حرصه ألي تعيين شخص ثالث يدعي (دبير) أي الكاتــب، مهمته كتابه تقارير مستمرة إلي ملك الملوك عن حلة الأقاليم ومدي استقرار الآمن والسلام فيه،وكان هذا الدبير يتناول في تقازيره أعمال كل من الحاكم الإقليمي والقائد الإقليمي. وخوفا من أن يتفق الثلاثة ضد ملك الملوك، فكان يرسل بعض عيونه وجواسيسه ليطلعوا علي أحوال الأقاليم ومدي استقرار الأمن فيها. وإذا بلغ ملك الملوك أن أحد الحكام قد أشــاع الظلــم والفســاد سارع بالتخلص منه آما بالعزل أو القتل، حتى يسترض سكان الإقليم، كما حدث في مصر، عندما قتل داريوش أرياندس الذي كان يتولى حكم مصــر أثناء عودة قمبيز ألي إيران.

ويذكر بعض المؤرخين بأن كل ولاية كان فيهــا مجلــس شــوري، أعضاؤه من الأشراف الإيرانيين الذي هاجروا مع القوات الغازية، وكــان هذا المجلس يتدخل في كل أمور الإدارة والحكومة، ولا شك أن هذا النظام كان يوجد نوعا من البيروقراطية في كل الأقاليم التابعــة للإمبراطوريــة الهخامنشية حيث أعضاء هذا المجالس يتمتعون بسلطات واسعة، وبمميزات طبقية كبيرة، وتحكمات نبعت من مناصبهم.

وعلي الرغم من أن حكام الولايات والمناصب الكبيرة فيهـا كانـت حكرا علي الإيرانيين الذين انتقلوا مع القوات الغازية، آلا أن سـكان هـذا الأقاليم كانوا في كثير من الأحايين راضين عن الوجود الإيراني، وذلك لأن داريوش ومن حكموا من بعده أبقوا علي عادات وتقاليد وعقائد كل إقلـيم، ولم يحاولوا فرض العقيدة الإيرانية عليهم، مما أشعر هؤلاء النـاس بـأن شخصيتهم الوطنية لم تطمس، علي الرغم من خضوعهم السياسي للدولـة الهخامنشية.

(٤) القانـون :

ذكرنا من قبل أن ملك الملوك كان يتمتع بسلطات لا حدود لها، وعلي هذا فكان القانون يمثل ما تمليه أراده الملك وقوة جيشه، وعلي هذا كان ملك الملوك يتولى منصب قاضي القضاة في الدولة الهخامنشية، ولكـن نظـرا لكثرة مشاغلة، فانه كان يسند هذه المهمة الي بعض الكهنة الذين يثق فيهم، وكانت المحاكم في الدولة علي نوعين أولهما (محكمة عليا) تتكـون مـن سبعة من القضاة ومقرها في العاصمة وثانيهما (محاكم محلية) حيث توجد محكمة في كل ولاية تابعة للإمبراطورية الهخامنشية وكان رجال الدين هم الذين يضعون القوانين لهذا المحاكم، ويتولون كذلك مهمة القضـاء وظـل الأمر علي هذا الحال حتى الأيام الأخيرة من الدولة الهخامنشـية، حيـث سمحت الدولة ــ كما ذكر ول دورانت ــ لبعض المدنين بتـولي منصـب القضاة، بل أنها سمحت كذلك لبعض النساء بالقيام بهذه المهمة، ومن النظم التي كانت تتبعها المحاكم (نظام المحكم) حيث تختار المحكمة حكما يحاول التوفيق فيما شجر بينهما من خلاف، وذلك لكي يخفف العبء عن المحاكم، كما كانت الأحكام رادعة في معظمها حتى تستقيم أمـور النـاس، وتقـل

الاضطرابات. فدولة واسعة كهذه لابد وأن يكون القانون الرادع وسيلة فعاله في توطيد دعائمها، وتأديب أو ظالم.

ثانيا .التشكيلات العسكرية :

طالما كان الجيش الهخامنشي قويا، طالما ظلت الإمبراطورية راسخة الأركان والدعائم، وعلي هذا الأساس كانت الدولة تبذل قصاري جهدها لتدعيم هذه القوه العسكرية حتى تكون لها اليد الطولي التي تستطيع عن طريقها البطش بكل فتنة داخلية أو في إحدى الولايات التابعة لها. ولا غرابه في ذلك فقيام الدولة الهخامنشية نفسها اعتمد علي القوه العسكرية التي ساعدت دولة بارسى الصغيرة أن تتحول آلي إمبراطورية كبيرة، وقد ذكر البعض بأن عدد أفراد الجيش الإيراني قد وصل في عهد اكورسيس إلى مليون وثمانمائة ألف رجل، ولا شك أن جيشا كبيرا بهذا العدد الضخم كان كفيلا بإرهاب أي ثائر، وقادرا علي إخماد أي فتنه، ولكن هذا الكثرة العددية أحيانا كانت وبالا علي الإمبراطورية الهخامنشية إذا انعدمت الوحدة في صفوفها، كما حدث في معركتي (ماراثون) و(بلاطية) فقد هزمت القوات الهخامنشية علي الرغم من الكثرة العديدة،وذلك لانعدام النظام والتنسيق بين أعدادها الهائلة.

وكانت التشكيلات العسكرية تنقسم ألي تشكيلات مركزية، وأخري إقليمية، وأهم هذه التشكيلات المركزية تتمثل في الحرس الملكي المقيم في العاصمة حيث يتولى حراسة قصر الملك، وإخماد أي فتنة قد تثار من أي طامع في الحكم، وقيل أن عدد أفراد هذا الحرس الملكي كان يصل آلي حوالي ألفي جندي، وبعد ذلك يأتي الجيش الإمبراطوري الذي يتكون من إيرانيين فقط، حيث كان التجنيد إجباريا علي جميع الإيرانيين الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخمسين سنة، ومن الملاحظ أنهم لم يسمحوا

لسكان الأقاليم التي خضعت لهم بالانضمام ألي هذا الجيش الإمبراطوري، حتى يضموا خضوع جميع أفراد هذا الجيش للأماني الإيرانية والعلم الإيراني.

ولكن كانت بعض الحملات العسكرية الإيرانية تصحب معها بعض المعاونين من الأقليات التي حاولت أن تحتمي بالإمبراطورية الإيرانية، أملا في البحث عن مكان لها في الحياة، مقابل تقديم خدمات للجيوش الإيرانية المتقدمة، وقد وضح هذا جيدا في الدور الذي لعبته جماعات اليهود الذين لجأوا ألي كورس لكي يخلصهم من السبي البابلي ويرجعهم آلي أورشليم، في مقابل مساعدته في فتح بابل وارشاده آلي الطريق آلي أورشليم، ومن بعدها ألي مصر عبر شبة جزيرة سيناء.

أما عن الجيوش الإقليمية، فكانت رئاستها دائما لضباط إيرانيين حيث لم يكن يسمح لسكان الإقليم نفسه أن يتولوا مناصب قيادية في هذا الجيش الإقليمي، بل كانت رتبهم لا تعتدي رتب جند، أما رتب الضباط فقاصرة علي الإيرانيين المهاجرين ألي هذه الإقليم، كما كانت هذه الجيوش الإقليمية تضم بين صفوفها بعض القوات انكشارية التي كانت تتكون من جنسيات غير إيرانية، وغير سكان الإقليم الذي يوجد فيه الجيش، والغرض من ذلك أن يكونوا سند الحامية الإيرانية إذا حاول أحد الجنود الوطنيون التمرد علي ضباطهم الإيرانيين، مثلما حدث في تمرد الجنود المصرين في قاعدة الفنيين ضد الضباط الإيرانيين، فتقدم هؤلاء الانكشاريون وبخاصة اليهود منهم وقاموا بالخدمة والتعاطف مع الضباط الإيرانيين ضد الجنود المصرين.

ومن المعروف أن هذه الجيوش الإقليمية كانت مهمة كل منها قاصرة علي حفظ الأمن في داخل إقليمه، أما الجيش الإمبراطوري فكانت مهمته

الحفاظ علي العاصمة، والإسراع ألي أي إقليم يتعرض لفتنـــه داخليـــة أو هجوم خارجي.

أما عن تسليح الجيش الهخامنشي، فكان يستخدم الأسلحة المتداولة في ذلك الوقت، لا في إيران وحدها، بل أفاد من الأسلحة التي كانت مستخدمة في الولايات التي خضعت للإمبراطورية الهخامنشية،ولهذا وجدت الأسلحة التقليدية كالسهام والسيوف والحراب والحناجر والدورع والخوزات، كمـــا وجدت أسلحة دخيلة علي الأرض الإيرانية، آما انهم أخذوا عن الجيـــوش الآشورية أو الهندية أو المصرية أو اليونانية، ومثل ذلك العجلات الحربيـــة والأفيال والمجانيق، كما استخدموا السفن الحربية بعـــد احـــتلالهم للشـــام وإخضاعهم للفينيقين الذين كانوا سادة البحار في ذلك الوقت.

ومن الخطط العسكرية التي لجأ أليها الإيرانيـــون لحمايـــة دولـــتهم المترامية الأطراف ربط ولاياتها بطرق ممهـــدة ســـريعة تيســـر للجـــيش الإمبراطوري سرعة الحركة وحريا الانتقال لإخماد أي فتنه قبل أن سيتفحل خطرها، وكانت هذا الطرق الرئيسي تمر بالعاصمة الهخامنشية وتربطهـــا بالأجزاء الشرقية من الدولة بالأجزاء الغربية منها.

ومن الخطط العسكرية أيضا، أنشاء العديد من القلاع العسكرية لحمايـــة الأقاليم والولايات التابعة للإمبراطورية الهخامنشية مـــن أي فتنـــة داخليـــة أو هجوم خارجي، وقد حظيت مصر وحدها بأربعة قلاع عسكرية وزعت علـــي حدودها الهامة. (وسنعرض التفصيل ذلـــك عنـــد الحـــديث عـــن الصـــالات الحضارية بين الدولة الهخامنشية وبخاصة في عهد داريوش وبين مصر) .

ثالثا . العقيدة :

نظرا لكون الميديين في البداية مجموعة من القبائل الآرية المهاجرة، كل قبيلة لها كيانها السياسي والاجتماعي الخاص بها، فمـــن الطبيعـــي أن

يكون لكل جماعة منها معتقداتها الخاصة بها، وعلي هذا كان مبدأ تعدد الأديان هو السائد في منطقة ميديا، ولم يقتصر الأمر آلهة محلية، بل تعدي الأمر ألي وجود بعض الميديين الذين اعتنقوا آلهة بابلية وآشورية، ولعل هذا راجع ألي أن ميديا كثيرا ما خضعت سياسيا لكل من بابل وآشور، وكان يتبع هذا الأمر امتثالا لأوامر حكام آشور وبابل، أو إرضاء لهم.

ومن الآلهة التي حظيت بعظيم العناية والتقديس في ظل الدولة الميدية وكذلك في منطقة بارسي، (مهر) أو الإله (ميترا) أي (الشمس)، وهذا الإله كانت عبادته منتشرة في كل من الهند وإيران منذ القدم وقبل الاريين آلي إيران والهند، وعندما وفد الآريون إلى المنطقة، ظلت هذه العبادة قائمة، وميترا هذا هو اله النور، ويتخذ معتنقوه الشمس رما له، ويعتقد المؤمنون به أنة كثير الخير، محقق السعادة للآدميين، كما أنه يؤيد البشر ويساندهم ضد المردة والشياطين، كما أنه يدافع عن الإنسان ضد الظلم والجبروت كما أنه يحفظ نظام الكون، وهو في النهاية يقوم يدور المحاسب للبشر بعد الوفاة، ويحاكم الإنسان علي أعمال سواء الخيرة منها أو السيئة. ومن المحتمل أن هذا المذهب كان شديد الرواج بين الميدين، لذا ترك بعض آثاره في الدين الزردشتي عندما بدأ ينتشر بين الميديين.

والي جانب عبادة الآلة ميترا (الشمس) اعتنق البعض مظاهر أخري من مظاهر الطبيعة أما رغبة في خيرها أو تجنبا لشرور هذا المظهر الطبيعي، كما قدس آخرون بعض الطيور والحيوانات.

وهكذا كان مبدأ تعدد الآلة هو السائد في الأرض ميديا وبارسي، وظل الحال كذلك ألي أن بدأ زردشت يدعو لدين جديد، فتمكن هذا الدين الجديد في النهاية التغلب علي معظم الأديان السابقة، وأصبح معظم الإيرانيين من ميديين وبارسيين يؤمنون بالدين الزردشتي.

والآن وجب أن نعرف بنبي الفرس زردشت وبدينه بعد ذلك.

زردشت :

اختلفت المؤرخون في تحديد الفترة الزمنية التي عاش فيها زردشت، بل وجد من بينهم من يشك أصلا في وجود حقيقي له. ويقول: أن كل ما قيل عن زردشت وحيك عنه من قصص، ليس إلا ضربا من الأساطير النابعة من وجدان العقلية الآرية التي ينتسب أليها الشعب الإيراني قديما وحديثا، آما من يرون أنه شخصية تاريخية حقيقية فقد اختلفوا فيما بينهم علي زمن ولادته وحياته فالبعض يري أنه كان يعيش في القرن السادس قبل الميلاد وجماعة ثانية تري انه كان يعيش في القرن العاشر قبل الميلاد،وفريق ثالث أرجعه آلي القرن الستين قبل الميلاد .

ونحن مع الذين يقولون بأن زردشت شخصية حقيقية كان لها وجود في إيران القديمة وكان معاصراً للدولة الميدية وسابقاً على الدولة الهخامنشية وعلى هذا فقد حدد البعض تاريخ ولادته بعام ٦٦٠ق.م وعام وفاته ٥٨٣ق.م. وهذان التاريخان في رأيي ليسا صحيحين على وجه اليقين وإنما يجب أن نقبلهما على أمهما قريبان من الفترة التاريخية التي عاش فيها زردشت ونشر دينه بين الإيرانيين.

وكما اختلف المؤرخون في زمان زردشت اختلفوا أيضاً في مسقط رأسه، فقد قال الطبري: أن زردشت من أهل فلسطين وأنه عاش فترة من عمره خادماً لبعض تلاميذ آرميا النبي، ولكنه كذب عليه ونسب إليه عالم يقله، فدعا الله عليه، فبرص ولحق ببلاد أذربيجان وشرع بها دين المجوسية.

ورأى آخر يقول بأنه إيراني الأصل والنشأة وأنه ولد في أذربيجان بجوار بحيرة أورميا المقدسة وأنه انتقل بعد بعثه بعشر سنوات إلى

العاصمة باكتريا (بلخ) حيث دعا الملك كشتاسب أحد ملوك الأسرة الكيانية للدخول في دينه، فقبل هذا الدين وتولى نشره بين الناس بعد ذلك.

وكعادة الإيرانيين القدماء من إحاطة شخصياتهم العامة بالكثير من القصص والأساطير فقد نسجوا حول زردشت هالة كبيرة من الأساطير عايشته منذ ولادته حتى مماته، بل أن بعض هذه الأساطير قد سبقت مولده بكثير، ومن يرجع منكم إلى كتب التاريخ القديم، وبخاصة ما كتب منها باللغة الفارسية، فسيجد العديد من هذه الأساطير، التي تكفي لعدة مجلدات ضخمة، تحاول جميعها تمجيد زردشت وإعلاء شأنه وشأن دعوته.

وقيل أن دعوة زردشت بدأت وله من العمر ثلاثون عاماً وكانت البداية عشر سنوات وأخيراً أدرك بأن بقاءه في هذا الجزء الغربي من إيران بعيداً عن العاصمة، سيجعل دينه مغموراً، لا يحمس به أحد خارج تلك الديار، وأن الدين لكي ينتشر يحتاج إلى شخصية عامة تتمثل في ملك مهيب يأخذ على عاتقه نشر الدعوة والترويج لها، وأخيراً هاجر زردشت إلى العاصمة بلخ، وبذل مساعي كثيرة حتى استطاع الوصول إلى قلب كشتاسب الذي أمن بدينه وتحمس له، فأخذ ينشره بسلاحين، سلاح الترغيب بين رعيته وكبار معاونيه وسلاح الترهيب بين أفراد شعبه، الذين كانوا يؤمنون ببعض قوى الطبيعة المتعددة، وأخيراً انتشر الدين بين عدد كبير من الإيرانيين، عملاً بالمذهب القائل الناس على دين ملوكهم.

وواصل الدين الزردشتي سيرته بعد ذلك بين قوة أحياناً وضعف أحياناً حتى دعمه داريوش الكبير حين اتخذه مذهباً لكل أجزاء إيران إبان عصره، وكذلك اتخذته الدولة الساسانية مذهباً لها، وظل هو المذهب الأساسي لإيران على الرغم من ظهور بعض المذاهب الأخرى بعد كمذهب

ماني ومزدك. ولم يضعف المذهب الزردشتي ويقوض دعائمه إلا دخـــول الإسلام أرض إيران.

وقد تأثر زردشت بالعداء التقليدي الذي كان سائداً بـــين العنصـــرين الإيراني والتوراني، حتى قال البعض بأن حياة زردشت انتهت بالقتل أثناء غارة تورانية على أرض إيران، وأن قاتله ويدعي "براتروك رسي" كـــأن توراني الأصل، وقد تم ذلك أثناء حملة أرجاسب التوراني على بلخ، وكان زردشت من بين الموابذة الذين قتلهم التورانيوم عندما كان كشتاسب خارج بلخ في زيادة والد رستم في زابلستان.

ولعلنا لاحظنا من خلال هذا السرد السريع لسيرة زردشـــت أن كـــل الأحداث التي اقترنت بشخصيته كانت أقرب إلـــى الأســـاطير منهـــا إلـــى الحقيقة، ولا يوجد أي سند تاريخي يمكن الاعتماد عليه والقطع بصـــحتها، ولكن ما يهمنا في هذا المجال مدى ارتباط المقيدة الزردشـــتية بالـــدولتين اللتين تركز عليهما الدراسة، وهما الدولة الميدية والدولة الهخامنشية حيـــث ذكر البعض في تعريفهم لزردشت تلك العبارة (زردشت نبي ميديا وعموم فارس)، وتفيد هذه العبارة أن زردشت كان موضع احترام وتقديس الميدين، كما كانت الزردشتية قد أدركت بعض الرواج في ظل الحكم الميدي كما أن داريوش الأول الهخامنشي قد اتخذ الزردشتية دينا رســـمياً لإمبراطوريـــة الهخامنشية.

والآن يجدر بنا أن ننتقل إلى دراسة أهم تعاليمه، التـــي بقيـــت بعـــد صاحبها، وما زال أثرها موجوداً حتى الآن.

أساس الزرادشتية القول بوجود قوة عليا هي قـــوة الخيـــر والنـــور وتسمى اهورامزد أي النور العظيم وبجانب هذه القوة سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليا وهي (الحكمـــة، الشـــجاعة، العفـــة، العـــدل،

الإخلاص، الأمانة، والكرم)، وبما أنه لا سبيل إلى الخير إلا بمقاومة الشر، ومواصلة التغلب عليه فإن هذه الديانة تفترض وجود شخصية شريرة تسمى أهريمن (قوة الشر والظلام) ويعاونها سبع من القوى الشيطانية الخبيثة المتمردة، تمثل الرذائل الإنسانية الرئيسية وهي (النفاق، الخديعة، الخيانة، الجبن، البخل، الكذب، وإزهاق الأرواح).

,وبين هاتين الطائفتين من قوى الخير والشر صراع دائم ونزاع لا ينقطع وحرب أبدية، لذا فالديانة الزردشتية تدعو المتدين للجهاد والصراع في سبيل إخضاع قوى الشر والسير على هدى إله الخير اهورامزدا.

ولكي يقرب زردشت من أذهان الناس فكرته عن أهورامزدا من أنه قوة روحانية عليا مجردة من جميع شوائب المادة منزهة عن جميع أدران النفس، فقد شبه إله الخير هذا بقوتين مادتين يسهل على الناس رؤيتهما وإدراك قوتهما وهاتان القوتان هما الشمس في السماء والنار في الأرض.

لذا نرى أن تعاليم زردشت الدينية تدور حول تقديس النار، ونراه يحمل أتباعه مهمة الاحتفاظ بالشعلة النارية مضطرمة بالمعنيين: الرمزي الروحاني والحرفي المادي معاً، لذا ظل الإيرانيون القدماء يوقدون النار الخالدة في صدورهم ومعابدهم. وكان زردشت نفسه في أثناء سنوات دعوته، يجول في البلاد ليقيم معابد للنار، حيث كان يحمل الشعلة المقدسة من معبد إلى آخر.

وهكذا نرى زردشت غير من مفهوم الناس عن العقيدة الإلهية وجعلهم يعبدون أهورمزدا ويتخلون عن عبادة مظاهر الطبيعة، كما أصبحت النار ذات تأثير كبير في حياتهم يحاولون الدفاع عنها والموت في سبيلها وقد تحملوا المشاق الكبيرة في هذا الصد وخير دليل على ذلك معاركهم مع الاسكندر الأكبر الذي نجح في إطفاء هذه النار المقدسة من معابدهم ولكنه

فشل في إطفائها من صدورهم، لذا سرعان ما أشعلوها مرة أخرى بعد رحيله عن إيران، كما أن إقامة المعابد الزردشتية وإقامة شعلات النار فيها جعلت الإيرانيين يتقدمون في فن البناء والعمارة ومحاولة التفنن في زخرفتها ونقوشها.

وقد أقيمت مئات المعابد لبيوت النار، وأهم هذه البيوت ثلاثة: أولها معبد آذركشاسب على حافة بحيرة أورميا المقدسة وكان خاصاً بالملف وظيفة العظماء، لذا كان يطلق عليه "آتشكدة شاهنشاهي" ويقول ابن خرداويه أن ملوك إيران الأقدمين كانوا يذهبون إلى هذا المعبد بعد تتويجهم للتبرك، كما كان المحاربون يترددون عليه قبل كل معركة وذلك طلباً للبركة والعون.

ويعبد النار الثاني كان في فارس وكان يطلق عليه اسم "فرنبغ" أو "فريغ" أي العظمة الإلهية وكان خالصاً برجال الدين وبعض كبار موظفي الدولة. أما المعبد الثالث فكان اسمه "برزين مهر" وكان في "ديروند" على قربة من نيسابور، وهذه النار كانت خاصة بطبقة الزراع.

وكان الإيرانيون يعتقدون أن هذه النيران الثلاث أنزلها اهورمزدا من السماء وأمام المكانة المرموقة المقدسة للنار، فإن الإيرانيين قد نزهوها عن كل مضرة، وأنها في رأيهم لا تحرق، أما إذا احترق أحد بنار، فإن ذلك بفعل قوى الشر المتمثلة في أهرمن.

وإلى جانب اهتمام الإيرانيين بالنار ومعابدها كما دعا إلى ذلك الدين الزردشتي فإنهم تعلموا منه أشياء أخلاقية أخرى كثيرة، فقد تعلموا من هذا الدين حب العمل والإخلاص فيه، إذ كان المذهب الزردشتي يعتبر العمل أفضل وسيلة ستقرب إلى الخالق والفوز برضاء. كما كان يرى أن تفاني الإنسان في أدائه لواجباته هو في الواقع تهذيب للنفس جدير بأن يجنبها

ظلمة الرذيلة ودنس الشر، وقد علق زردشت أهمية كبيرة على الزراعة حيث جعلها أفضل شعار لتقريب العبد من الخالق الأكبر والإقرار بفضله، وبفضل نظرة زردشت هذه إلى الأرض والزراعة أصبح الزراعيون ذوي مكانة مرموقة في مجتمعهم وأدى هذا بطبيعة الحال إلى الرخاء الناتج عن وفرة المحاصيل وزيادة الرقعة التي يستغلها الإيرانيون في الحصول على حاجاتهم اليومية من إنتاج الأرض.

وتعاليم زردشت موجودة في الكتاب المقدس المعروف باسم الأوستا الذي كان يضم واحدا وعشرين قسماً اندثرت جميعها عدا قسما واحدا وهو المعروف باسم "تاتها" وقد وردت فيه تعاليم زردشت التي أذاعها وصدرت عن لسانه في باكتيريا "بلخ"، أما بقية الأجزاء الأخرى فقيل أن الاسكندر هو الذي قضى عليها حيث أحرق الأوستا الأصلية عندما وطئت أقدام جنوده معبد النار في أذربيجان حيث كان الإيرانيون يحتفظون بتلك النسخة، أما الجزء المتبقي فقد استطاع بعض الموابذة تهربيه فلم تصله النار التي أضرمها الاسكندر في الكتاب، كما قيل أن هذا الجزء الباقي من جمع خلفاء زردشت حيث كانوا يحفظون هذه التعاليم حفظاً جيداً، فقاموا بتسجيلها بعد أن أحرف الاسكندر النسخة الأصلية المحفوظة في بيت النار والتي كانت – كما يقول المسعودي – مدونة بأحرف من ذهب على أثنى عشر ألف قطعة من نوع فاخر من الرق المصنوع من جلد الماعز أو البقر والمتبقي من الأوستا ينقسم إلى خمسة أسفار هي: يسنا، ويسبرد، ونديداد، يشتها وخرده أوستا.

وإلى جانب ذلك يوجد شيء آخر متصل بالأوستا وهو الزند ونقصد به الترجمة والشرح للأوستا وهي التي كتبت في عصر الدولة الساسانية حيث سجلت الأوستا الأولى – باللغة الاشكالية، فلما جاء العصر الساساني

لم يكن الإيرانيون يستطيعون قراءة الأوستا لاختلاف لغتهم عن لغة الاشكانيين، لذا قام الموابذة بترجمة وشرح الأجزاء المتبقية من الأوستا باللغة الفارسية البهلوية وأطلق عليها اسم "الزند" وهذه الكلمة بالفارسية البهلوية تعني (الشرح).

وجاء بعد الزند شرح آخر أطلق عليه اسم "بازند" وهو شرح للزند بلغة تربط بين الفارسية الساسانية الحديثة، وهذا دليل على أنه كتب في فترة الانتقال بين اللغتين.

ويعد بازند ظهر شرح آخر للأوستا أو بمعنى أصح للأجزاء المتبقية عن الأوستا أطلق عليه "بارده" أو "اكرده" ويقول محمد جواد أن المقصود بهاتين الكلمتين هو كلمة "دينكرد" التي كتبت لتكون شرحاً لبازند. أي أن لدينا أربعة كتب هي: الأوستا، والزند، وبازند، ودينكرد.

هذه نظرة سريعة إلى زردشت وكتابه المقدس الأوستا، وقد استطاع هذا المذهب الانتشار في ربوع إيران كلها في عصر الدولتين الميدية والهخامنشية، وإن ضعف فترة حكم الاسكندر لإيران ولكنه عاود الظهور والقوة إبان الدولة الساسانية إلى أن تعرضت إيران للفتح الإسلامي عام ٦٥٠م، فمنى المذهب الزردشتي بأكبر ضربة قاصمة قضت تقريباً على كل نفوذه وسيادته في إيران، حيث سارع أتباعه بالدخول في دين الإسلام، ولم يبق منهم على مذهبه إلا قلة هاجرت إلى الهند حيث حرية العقيدة وما زال أحفادهم يعيشون فيها حتى الآن، ولكنهم قلة لا تذكر بالنسبة لعدد السكان الهنود، إذ لا يزيد عدد هؤلاء الزردشتيين عن مليونين من البشر وما قيمة مليونين وسط شعب يصل تعداده إلى خمسمائة مليون نسمة.

رابعاً: العمارة :

يعتقد البعض أن العمارة الميدية كانت تتسم بالخشونة والبداوة وكانت أقل تطوراً عما كانت عليه العمارة لدى الهخامنشيين الذين أعقبوهم في حكم إيران. ومع هذا بعدد من هذه الأبنية الميدية أكثر تطوراً عن الأبنية التي كان يقطنها السكان غير الآريين الذين كانوا يسكنون إيران قبل مقدم الميدين إليها.

ومن الآثار التي بقيت عن العصر الميدي – كما ذكر العلامة حسن بيرنيا في كتابه إيران باستان جـ ١- أسد حجري وجد على مقربة من همدان ويقول الأثريون، أن هذا الأسد ظل على حاله حتى عام ٩٣٠م، ولكنه سقط بعد ذلك على الأرض وتهمشت أجزاء منه، ولكن يجب الاعتراف بأن هذا الأسد ليس من المحقق أنه بقى عن العصر الميدي. وذلك لأن بعض المؤرخين ذكر بأنه ينسب إلى العصر الهخامنشي، وإن رجع نولدكه اسناده إلى العصر الميدي.

كما عثر على بعض النقوش الحجرية التي تحمل سمات ميدية، وقد عثر على هذه النقوش على مقبرة كرمانشاه وكان داود.

ويرجع البعض دمار ما بناه الميديون من آثار وعمار. إلى أنها كانت مبنية من الأجر مما جعلها معرضة للدمار والسقوط.

وإذا كان الأمر على هذا الحال إبان الدولة الميدية، فإن فن العمارة قد طرأت عليه تغييرات كبيرة إبان حكم الهخامنشيين نتيجة للصلات الحضارية الضخمة التي ربطت بين إيران وبين جميع الولايات التي خضعت للإمبراطورية الهخامنشية وبخاصة الولايات ذات التاريخ الحضاري الكبير مثل اليونان وآشور وبابل ومصر والهند، وقبل أن نتحدث

عن هذه العمائر الضخمة التي بقيت عن الهخامنشيين، يجب أن نشير إلى العواصم المختلفة التي كان لها الدور الكبير في التقدم العمراني في إيران.

(١) باساركاد (بازارجاده) وتعرف الآن باسم (تخت مادر سليمان) وكانت العاصمة الهخامنشية إبان عصر كوروش الأول وقمبيز.

(٢) تخت جمشيد وقد بدأت تتبوأ مكانتها كعاصمة ابتداء من عصر داريوش الكبير ويقال بأنه بدأ في تشييدها عام ٥١٤ أو ٥١٢ق.م والاسم الأصلي لتخت جمشيد كما جاء في بعض الكتابات التي وجدت فيها هو (بارسه) ولهذا يعرفها اليونانيون باسم (برسه بليس) أو مدينة بارس، وما زالت تعرف حتى الآن في الغرب باسم (بيرسوبليس)، أما اسم تخت جمشيد فهو من وضع المؤرخين العرب. وهذا الصرح الحضاري يقع على بعد عشرين كيلو متر تقريباً من شيراز الحالية وقد ظلمت تخت جمشيد حاضرة للإمبراطورية ومركزاً للعمران طوال مائة وثمانين عاماً إلى أن جاءها الاسكندر الأكبر بين عامي ٣٣٠ و ٣٢٣ ق.م وأضرم النار فيها، وحطم كثيراً من مبانيها وآثارها ولكنها مع ذلك تحظى حتى اليوم بأهم الآثار العمرانية الباقية عن الإمبراطورية الهخامنشية.

(٣) كان بعض الملوك يتخذون من شوش (والتي تعرف في اللغة العربية باسم سوس أو صوصه)، وهذه المدينة كانت عاصمة للعيلاميين قبل مقدم الآريين إلى إيران، ولعل ازدهار الحياة فيها شجع الهخامنشيين للاستقرار فيها بعض الوقت والإقامة فيها وكأنها عاصمة ثانية لهم. واعتقد أن هذا كان يحدث أحياناً عندما كانت الجيوش الإيرانية تتقدم نحو بلاد النهرين أو الشام أو ليديا، فكان الملك الهخامنشي يقيم في شوش ليكون على مقربة من المعارك.

(٤) اكباتانا (همدان الحالية) وهذه كانت عاصمة الميديين أولاً وقد أبقى الهخامنشيون عليها، وكانوا يتخذونها عاصمة صيفية، ولعل هذا راجع إلى شدة الحرارة في منطقة فارس وشوش حيث تبلغ الحرارة أحياناً ما يزيد على الخمسين درجة.

وبالنظر إلى هذه العواصم الأربعة نجد أنها حظيت ببعض الضمائر ومظاهر التشييد التي بقيت عن الإمبراطورية الهخامنشية، وتفصيل ذلك يتضح فيما يلي:

أولاً: آثار باساركاد:

لا شك أن اتخاذ كورش وقمبيز لهذه المدينة عاصمة لإمبراطوريتهم، وقد فرض عليهم الاهتمام والتشييد فيها، فأقبل كل منهم يبني له قصوراً وعمائر لحاشيته، ولكن وسائل التعرية المختلفة قد حطمت هذه القصور، ولم يبق منها إلا جملة من الأعمدة المحطمة التي تناثرت في أرجائها المختلفة. أما أهم آثار هذه العاصمة الأولى يتمثل في مقبرة كورش التي توجد بجوارها، وهذا القبر شيد عام ٥٢٩ق.م وهو عام وفاة كورش مؤسس الإمبراطورية الهخامنشية وما زال القبر قائماً حتى اليوم، ولا شك أن وسائل التعرية قد أثرت على هذه المقبرة وجعلها تبدو اليوم أقل مما كانت عليه يوم تشييدها، وهذه المقبرة يبلغ ارتفاعها الآن حوالي ٣٥ قدماً، ويذكر بعض المؤرخين بأنه هذه المقبرة بنيت على شاكلة المقابر اليونانية، وقد بنيت على مساحة عريضة وشيدت من أحجار صلدة ضخمة، لها قاعدة متدرجة من ست طبقات من الحجر الضخم الأبيض الشبيه بالمرمر، وتعلو هذه الطبقات الست حجرة طولها ثلاثة أمتار ونصف وعرضها متران وعشرة سنتيمترات ومغطى سقفها بقطعة حجرية واحدة مستديرة، وتضم هذه الحجرة دهليزا ضيقاً تتجه فتحته نحو الغرب، ويوجد المحراب على

الجدار الجنوبي، وقد سطرت عليه باللغة العربية الآيات الأربعة الأولى من سورة الفتح والتي تبدأ بقوله تعالى"إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا " ، ولا يخفى على أحد أن هذه الآيات قد سطرت في العصر الإسلامي.

ويذكر المؤرخون القدماء أنه كانت توجد بالمقبرة (لوحة كتبت بالخط المسماري) ويقال أنها كانت تتضمن ما يلي: (أيها الإنسان، مهما تكن، ومهما اختلف المكان الذي تفد منه، وذلك لأنني أدرك أنك لابد قادم، أنني كوروش الذي أقام هذه الدولة الرحبة من أجل البارسيين، وأخيراً أودعت هذا المكان الغاية في الضيق، فلا شماته، ولا حسد ... !!).

ثانياً: آثار شوش:

كان لداريوس الكبير قصر كبير في شوش، وهذا القصر كان يتوسط مساحة كبيرة تحيط بها أبنية من أطرافها الأربعة، ومن المعروف أن داريوش شيد مدرسة للطب ملحقة بهذا القصر، وكان الأطباء المصريون هم الذين يشرفون على هذه المدرسة وإعداد الأطباء فيها. ولكن هذا القصر للأسف ضاع عن آخره.

كما بنى كل من آرتا اكرزسيس الأول والثاني قصوراً في مدينة شوث، ولكن للأسف تعرضت هذه القصور للدمار والتخريب، ولم يبق منها إلا بعض دعائمها وأسسها، وكانت هذه القصور مبنية من الآجر المحروق المكسو الذي يعطي بريقاً كبريق القيشاني.

كما عثر الأثريون في مدينة شوش على أفريز القناصة، ويقصد بهم جماعة المحاربين الذين كانوا يمثلون الحرس الملكي.

ثالثاً: آثار أكباتانا (همدان):

كان يوجد بها قصر ملكي بني من خشب الساج والسرو المصفق برقائق المعدن، ويقال أن هذا القصر ظل على حاله عام ١٥٠ ق.م، ولكنه تهدم بعد ذلك، ولم يبق منه أي أثر.

وحديثنا عن العمارة الهخامنشية في أكباتانا وهي العاصمة السابقة للميديين، يجعلنا نتساءل، هل كانت الحضارة الهاخمنشية امتداداً للحضارة الميدية؟ يجب البعض على هذا السؤال بالإيجاب ويقولون بأن الهخامنشيين ليسوا إلا امتداداً للميديين فكلاهما من أصل آري مهاجر، وإن اختلفت أماكن إقامة كل منهما حيث كانت إقامة الميديين في أكباتانا، وإقامة الهخامنشيين في بارسي أو أنشان، وعلى هذا فإن حضارة الهخامنشيين مدينة لحضارة الميديين بالكثير.

ولكن هذا الرأي لا تتوفر لنا الأدلة لإبداء الرأي الأخير فيه، ولا يمكننا حتى الآن تحديد ما أخذه الهخامنشيون وما لم يأخذوه من الميديين، وذلك لأننا لا نعرف حق المعرفة أبعاد الحضارة الميدية حتى نستطيع القول بأن هذا الأمر انتقل أو أن هذا المظهر الحضاري اندثر، والشيء الذي ثبت أن الهخامنشيين أخذوه عن الميديين – كما ورد في كتابات هيردوت وسترابون – يتمثل في الملابس وشكل الأردية.

رابعاً: تخت جمشيد:

وأخيراً يأتي دور تخت جمشيد الضخم في مجال العمارة، فهي الصرح الشامخ للحضارة الهخامنشية، وما زالت حتى اليوم المركز السياحي الأول في إيران، وقد أقامت إيران في هذه الساحة احتفالات ضخمة في عام ١٩٧١ م وذلك بمناسبة مرور ألفين وخمسمائة عام على قيام الإمبراطورية الهخامنشية، وقد دعت لها إيران جميع ملوك ورؤساء

العالم، كما زودت إيران هذه الساحة الرحبة بالصوت والضوء وألحقت بها مجموعة من الخيام الفاخرة لإقامة السياح وكبار الزوار.

وتضم آثار تخت جمشيد مجموعتين أساسيتين من الآثار التي تحكي عظمة الإمبراطورية الهخامنشية، وهما:

(أ) نقش رست، وهو عبارة عن أربعة مقابر قدت من الصخر وذلك في واجهة جبل عمودي مطل على ساحة تخت جمشيد، ألحق به مقبرة نحتها في الجبل العمودي المطل على الساحة، وقد نحت المقبرة على هيئة قصر يقام على الأعمدة، ومزين ببعض النقوش والرسوم يعلوها رمز أهورا مزدا، وكانت المقبرة مقسمة إلى عدة حجرات بعضها للتهوية، والبعض الآخر يوضع فيها تابوت الملك وحاجياته.

وبعد وفاة داريوش تبعه ثلاثة من خلفائه ونحتوا مقابر على غرار مقبرته، وهكذا خلفت لنا الإمبراطورية الهخامنشية أربع مقابر لا وجود لمثلها في إيران كلها.

ومنطقة نقش رستم من الأماكن التي حظيت بالتقديس والاحترام في العهود السابقة، فكان الأهالي يزورون المنطقة للمتعة وللعبادة ويدمون للرسوم نذوراً ويبثون إليها بحاجاتهم ودعائهم، وقد ظل هذا المكان يموج بالحركة والعمران حتى نهاية العصر الساساني.

وسبب تسمية هذا المكان بنقش رستم ربما يرجع إلى أن النقوش الساسانية التي أضيفت إليه والتي صورت حرب الساسانيين مع الهياطلة والأجانب، قد صورت أن بطل هذه المعارك هو البطل الأسطوري رستم بن زال والذي وضع في النقش وقد طعن بحربة واحدة كلاً من الفارس والفرس وأرادهما قتيلين، وهكذا كان ارتباط هذا النقش بعد ذلك بصورة رستم سبباً في تسميته بنقش رستم.

(ب) مجموعة القصور والساحات الرحبة في تخت جمشيد.

وتبدأ هذه الساحة بمجموعة من الدرجات الحجرية الفسيحة التي قيل أنها كانت تتسع لعشرة من الفرسان يستطيعون صعودها متوازيين، وذكر فرجيسون هذه الدرجات بقوله: أنها أبدع درجات موجودة في أية بقعة من بقاع العالم.

وهذه الدرجات تصل بين أسفل الوادي والساحة المرتفعة التي أقيمت عليها القصور الملكية، ويبلغ ارتفاع هذه الساحة ما بين عشرين وخمسين قدماً.

وعلى جانبي الدرجات يقوم سور منخفض نقشت عليه بعض النقوش قليلة البروز، وهذه النقوش تمثل مجموعات البشر الذين يخضعون لحكم الإمبراطورية الهخامنشية، وقد صورتهم النقوش وقد وفدوا إلى تخت جمشيد ليقدموا القرابين والخراج للإمبراطور الهخامنشي داريوش الكبير، وعلى هذا تعتبر هذه النقوش دراسة مقارنة للأزياء وقسمات الوجوه، وأهم المحاصيل التي يتميز بها كل إقليم من الأقاليم التابعة للإمبراطورية، وكذلك تفيدنا في معرفة بعض طقوس هذه الأقاليم، وكذلك الطقوس التي كان يتبعها داريوش في احتفالاته، وفي لقائه بمندوبي الولايات الخاضعة لحكمه.

وبعد الانتهاء من ارتقاء الدرجات والوصول إلى الساحة الرحبة التي يبلغ طولها ألف وخمسمائة قدم وعرضها ألف قدم، يجد الصاعد في مواجهة قصر أكزرسيس الأول الذي يعرف باسم (جهل منار) وقد أقيم هذا القصر على اثنين وسبعين عموداً، لم يبق منها إلا ثلاثة عشر عموداً فقط .

ويقع خلف جبل منار قصر المائة عامود الذي ينسب إلى داريوش الكبير، ويعد أكبر قصور تلك الساحة، ولكن من الأسف أن هذا القصر قد تهدم عن آخره، ولم يبق من أعمدته إلا عمود واحد فقط [1].

إذا كان الفرس قد اهتموا ببناء القصور ألم يؤثر عنهم الاهتمام بصناعة التماثيل ؟

العثور على تماثيل بقيت عن الدولة الهخامنشية ظل إلى فترة قريبة أمراً مستبعداً، ولكن تم في السنوات الأخيرة العثور على تمثال بالحجم الطبيعي لداريوش الكبير، ولكن للأسف لم يعثر على رأسه، وقد بدا داريوش مرتدياً ملابس تجمع بين الزيين الإيراني والفرعوني، مما يدل على أن النحات الذي قام بصناعة هذا التمثال كان مصرياً، ولا غرابة في ذلك، فلقد أعجب داريوش بالتماثيل الفرعونية الضخمة التي رآها عند زيارته لمصر، فأراد أن يقلد ملوكها، ونقل عدداً من الفنانين والمثالين المصريين إلى تخت جشميد وأمرهم بصناعة تمثال له، فنفذوا أوامره وصنعوا هذا التمثال الفريد في أرض إيران، والذي تعتز به إيران الآن وتضعه في مدخل المتحف الوطني بطهران .

وعلى كل حال، فإن صناعة التماثيل لم تكن رائجة بالأرض الإيرانية، ولهذا لم يعثر على تماثيل تذكر في أرضها غير تمثال داريوش هذا .

ومما لا شك فيه أن بناء هذه القصور الفخمة جاء نتيجة لحركة الفتوح الهخامنشية، فقد زار داريوش مصر ورأى معبد الكرنك، وزار أثينا

---

(١) أكتفي بهذا الحد، على أن أناقش إقامة هذه الأعمدة ومدى صلتها بأعمدة الكرنك المصرية وذلك أثناء الحديث عن التقاء الحضارتين المصرية والإيرانية في عهد داريوش وذلك في آخر الملزمة .

ورأى معابدها الشهيرة، وأراد أن يبني له قصراً في إيـــران يكـــون أكبـــر وأعظم من كل القصور التي رآها في الولايات التابعة له، وكأن لسان حاله يقول: يجب أن يكون لإيران مركز الإمبراطورية قصوراً أفخم وأكبر مـــن جميع القصور والمعابد التي توجد في جميـــع الولايـــات التابعـــة للـــبلاط الهخامنشي .

ولكن كيف يتسنى له إقامة مثل هذه المساحة وتلك القصور، ولا توجد الخبرة الإيرانية التي تكفي لإقامة مثل هذا الصرح العظيم، كما أن الأرض الإيرانية في ذلك الوقت لم يكن في مقدورها أن تمده بالخامات اللازمة لهذه المساحة الرحبة .

للإجابة على هذا يمكن أن نقرأ ما قاله داريوش نفسه في نقشه الـــذي حكى فيه كيف جمع المواد والخامات اللازمة لبناء قصره الضخم ذي المائة عمود .

قال: إنه على سبيل المثال لقد أحضر الذهب الذي استخدم في قصره من منطقة سارد، وأحضروا الأحجار مـــن ســـفديان، والنقـــوش البـــارزة المصنوعة من العاج من الهند والحبشة ... إلى غير ذلك من الخامات التي استخدمت في هذا البناء الضخم .

ولكن لم يكن الأمر قاصراً على الخامات وحدها، بل امتد الأمر إلـــى أسلوب البناء نفسه والعمال الذين أشرفوا على إقامة هذه القصور الضخمة. وإن أدخل الفرس عليها بعض اللمسات التي تتفق والذوق الإيراني والـــذي جعل بعض هذه الآثار تتسم بسمات خاصة بها لا توجد مجتمعة في أي بلد آخر غير إيران. وفي هذا المجال قال العلامة ول دورانت في كتابه قصـــة الحضارة :

...... وبهذا يمكننا أن نصف (الفن الفارسي) بنفس العبارة المختصرة التي نصف بها سائر الفنون العالمية الأخرى، فنقول إن أكثـر عناصـره أجنبية عنه، فمقبرة (كوزرش) منقولة عن مقابر (ليديا) والأعمدة النحيلة ما هي إلا تطور مهذب لأعمدة الآشوريين، وصفوف الأعمدة والنقوش البارزة ما هي إلا فكرة مستوحاة من المصريين، ورؤوس الأعمدة التـي جملوهـا على شاكلة الحيوانات ما هي إلا عدوى سرت إلى الفرس من أهل (بابـل) و(نينوي). ومع ذلك كله فقد امتاز البناء الفارسي في مجموعـه بميـزات خاصة، جعلت فن العمارة الفارسية يبدو متميزاً عن سـائر زملائـه فـي مختلف الأقطار، وقد زودته هذه الميزات بذوق أرستقراطي رفيع، جعلـه يسرع إلى تهذيب الأعمدة المصرية الشاهقة والكتل (الموصـلية) الكثيفـة لتصبح في صورتها الجديدة في مدينة برسيوليس (تحت جشميد) مصـدراً للروعة والأناقة والتناسب والدقة .

خامساً : الآداب والعلوم والفنون :

(١) اللغة والخط :

يقول المستشرق نولدكه: "على الرغم من عدم وجود ألواح ميدية في أيدينا، فإنني أظن أن خطهم ولغتهم كانا على شاكلة ما عثر لـدى ملـوك مملكة بارسي " .

ومن الملاحظ أن العلماء لا يشكون كثيراً في مدى التقارب بين لغـة ميديا ولغة بارسي، وحجتهم في ذلك أن سكان كلا المملكتين كانوا قـادرين علي التفاهم فيما بينهم، ولا يمكن أن يتم هذا التفاهم والتخاطـب إلـى إذا تقاربت اللغتان على الأقل، ويعتقد دارس تتر بأن اللغة الكرديـة الحاليـة مشتقة عن اللغة الميدية، كما أن بعض ألفاظ لغة البشتو (لغـة أفغانسـتان) مشتقة من اللغة الميدية كذلك .

أما عن اللغة التي كان الهخامنشيون يستخدمونها في أحاديثهم وكتبهم، فكانت لغة آرية تشعبت إلى لهجتين على حسب الاستعمال والاستخدام .

اللهجة الأولى : اللغة الأوستائية وهذه لغة مذهبية كان يستخدمها رجال الدين في طقوسهم وفي تدوين الأوستا كتاب زرادشت المقدس .

اللهجة الثانية : اللغة الفارسية القديمة، وهي الأصل الذي تفرعت عنه اللغات البلهوية الإشكانية والساسانية فيما بعد، وهذه اللغة الفارسية القديمة هي التي استخدمت في نقش بيستون ونقش رستم وسائر الألواح التي بقيت عن العصر الهخامنشي .

وعلاوة على اللغتين الفارسية القديمة والاوستائية كانت اللغة العيلامية مازالت مستخدمة، فقد سطرت بها فواتير حسابات كثيرة وبخاصة في منطقة شوش، كما استخدمت اللغة الأرامية لتكون اللغة التي تكتب بها الرسائل بين الأقاليم المختلفة والسبب في ذلك أن اللغة الأرامية كانت هي اللغة العالمية في ذلك الوقت، كما استخدمت الدولة الهخامنشية الخط الآرامي في كتابتها كذلك، حيث اصبح هذا الخط هو أكثر الخطوط رواجاً في العصر الهخامنشي، كما استخدم هذا الخط أيضاً في الكتابة على النقود واستخدم كذلك في النقوش واللوحات التي بقيت عن العصر الهخامنشي. وعلى سبيل المثال فقد كتبت نقوش بيستون ورستم بالخط المسماري الارامي، وكان هذا الخط يضم ٣٦ حرفاً وست علامات، وفيه تكون الكتابة من الشمال إلى اليمين، أما الخط الأوستائي الذي كتبت به الأوستا فكان يتكون من ٤٤ حرفاً ويكتب من اليمين إلى الشمال .

(٢) الأدب :

أ – أدب مذهبي :

أقدم ما وصلنا من أدب الفرس الأقدمين يتمثل في كتاب الأوستا (يعرف في اللغة العربية باسم الأبستاني) وهو فضلاً عن كونه كتاباً مذهبياً، فهو حافل ببعض الصور الأدبية الإيرانية التي ظلت عالقة بأذهان الناس طوال حقبة طويلة من الزمن حتى أدركتها عصور التدوين، فدونت ضمن أجزاء الأوستا، وتجمع الروايات على أن ما وصلت من صحف زرادشت (الأوستا) نذر يسير مما كانت عليه فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن الأبستاني كتب في اثني عشر ألف مجلد بالذهب، فيه وعد ووعيد وأمر ونهي وغير ذلك من الشرائع والعبادات، وجاء بشاهنامة الفردوسي أن فصور الأوستا البالغ عددها ألفا ومائتي فصل كانت مكتوبة على لوحة من الذهب .

وسواء أكان هذا الكلام صحيحاً أم لا، فإنما يدل على ما كانت عليه الأوستا من ضخامة في عهد الهخامنشيين، وكانت الأوستا على ٢١ جزءاً تعرضت للإحراق أيام الإسكندر ثم جمعت أيام الساسانيين بعض الأجزاء الباقية، كما تعرضت بعد أجزاء من أوستا الساسانيين للاندثار، ولم يبق من الأوستا إلا خمسة أجزاء هي الموجودة اليوم، وهذه الأجزاء هي :

بيسنا – ويسبرد – نديداد – يشتها – خرده أوستا

ب – النقوش القديمة :

إلى جانب الأوستا وجدت نقوش كتبت بالفارسية القديمة، وعلى الرغم من أنها نقوش تاريخية في معظمها – كما يقول الدكتور أمين عبد المجيد، فإن المدقق بين سطورها لا يعدم أن يجد بينها عبارات ذات مسحة أدبية روحية تعبر عن إيمان الإنسان رغم جبروته بالقدرة المهيمنة على هذا

العالم، وإحساسه بالعجز والافتقار إليها. وقد سطرت هذه النقوش على صخور بيستون وألوانه واصطخر وشوش، وفيما يلي بعض النصوص التاريخية الأدبية التي بقيت عن داريوش الكبير .

نص جاء على نقش بيستون :

يقول الملك داريوش : إن هذه الأريكة الملكية التي انتزعها (كثوماتاي) [1] المجوسي من قمبيز كانت من زمن قديم في أسرتنا، لقد انتزع (كثوماتاي) المجوسي فارس ميديا والولايات الأخرى من قمبيز واستأثر بها وصار ملكاً .

يقول الملك دارا لم يظهر أحد من فارس وميديا أو من أسرتنا ليسترد عرش المملكة من كثوماتاي المجوسي، وكان الناس يخشونه لأنه قتل كثيراً من الناس الذين كانوا يعرفونه من قبل، كان يقتلهم حتى لا يعرفوه ويعلموا أنه ليس (بردياً) [2] بن كورش، لم يكن أحد قط ليجترئ أن يقول شيئاً عن كثوماتاي المجوسي، حتى أتيت أنا، طلبت العون من (أهورامزدا) فأعانني، واستطعت ونفر معي من قتل كثوماتاي المجوسي والذين كانوا على رأس أعوانه ......

وقبل أن نترك هذا النقش، يجب علينا أن نعرف بنقش بيستون نفسه، وهو النقش الذي يقع على بعد ثلاثين ميلاً من كرمانشاه على الطريق الرئيسي إلى خراسان ويبلغ ارتفاعه ٤٥٦ متراً وتنقسم نقوشه إلى قسمين، أحدهما يتضمن صوراً تمثل انتصار الملك داريوش وخضوع الملوك الآخرين له، وثانيهما يتضمن عبارات كتبت بالخط المسماري منها تلك

---

(١) أي سمرديس الكذاب الذي انتزع حكم الهخامنشيين أثناء غياب قمبيز في مصر، وأخيراً تمكن داريوش من القضاء عليه واسترداد العرش للهخامنشيين مرة أخرى .

(٢) الاسم الفارسي لسمرديس .

العبارة التي أوردناها، وقد كتبت هذه العبارات بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والكلدانية أو الآشورية وأخيراً الميدية .

وهذا النقش مع كونه وثيقة تاريخية خطيرة الشأن يرجع إليها في معرفة كثير من أحوال فارس في عهد داريوش الكبير، فإن للنقش قيمة لغوية لا تقل عن قيمته التاريخية، فقد كان حل رموزه كما يقول المرحوم حامد عبد القادر وسيلة لمعرفة الخط الكلداني المسماري أو السناني الذي كان يستخدم في إيران في ذلك الوقت، وقد أمكن بمعرفة هذا الخط الكلداني الكشف عن كثير من أخبار البابليين والآشوريين .

والنقش الثاني وجد على حجر تخت جشميد :

إنه للإله العظيم (أهورامزدا) الذي خلق هذه الأرض، الذي خلق تلك السماء، الذي خلق الإنسان، الذي خلق الهناء والسرور من أجل الناس، الذي جعل (داريوش) ملكاً ونصبه حاكماً مطلقاً ومشرعاً فرداً لكثير من أفراد البشر .

(٣) العلوم :

لم تفد الإمبراطورية الهخامنشية – كما يذكر صاحب كتاب سيري در تاريخ إيران باستان – من ثروة ومقدرات التفوق البشري لدى الأقاليم التي سيطرت عليها فحسب، بل أفادت كذلك من تقدمه العلمي .

وهذا الكلام جد حقيقي، فنحن نعرف أن الملوك البيشداديين قد نقلوا على سبيل المثال عدداً من مشاهير الأطباء المصريين إلى عواصمهم لكي يشرفوا على تدريب أطباء القصر وكبار أطباء إيران، ونفس الشيء فعلوه مع كبار علماء الولايات العديدة التي خضعت لنفوذهم .

ولكن على الرغم من كل هذا الاستجلاب لمشاهير العلماء ومحاولة الإفادة من علومهم، إلا أن العوم كانت في الدولة الهخامنشية حكراً على

كبار الكهنة والأعيان والأشراف فقط، ولهذا كان عدد المتعاملين مع هـذه العلوم محدود للغاية، ولهذا لم تحرز إيران تقدماً علمياً كبيراً وذلك لحرص الكهنة ورجال الدولة على عدم توسيع رقعة العلم، وتوفيره للجميع، فكما كانت الحياة الاجتماعية متأثرة بالطبقية، كما سنعرف بعد قليل، فإن الحياة العلمية تأثرت بهذه الطبقية، ولم يسمح لعامة الشعب بخوض غمار العلوم، ويرجع البعض ذلك إلى أن اهتمام الإمبراطورية الهخامنشية كان منصباً على الناحية العسكرية أكثر من أي شيء، ولهذا كان الاشتغال بالعلوم نوعاً من الرفاهية، وفي مقدورهم إحضار العلماء من بابل ومصر واليونان وغيرها من البلاد التي خضعت لسلطانهم. وإذا كان للهخامنشيين من فضل في مجال رقي العلوم، فهو عقد صلات علمية بين جميع الولايات التي خضعت لسلطانهم، حيث أن هذه الأقاليم لم تكن على اتصال سابق، فخضوعها جميعاً لدولة واحدة ساعد على وجود نوع من الاتصال الثقافي والعلمي، والتفاعل بين العلوم المختلفة مما أدى بالضرورة إلى تقدمها ورواجها، ولكن يجب أن نتذكر جيداً أن هذا التفاهم والرواج تم على أيدي سكان هذه الولايات، وليس على أيدي الإيرانيين أنفسهم .

(٤) الفنون :

كان الإيرانيون في بداية تأسيس دولتهم يهتمون غاية الاهتمام بالناحية الحربية دون غيرها، ولا شك أن هذا الاهتمام كان ذا تأثير كبير على الفنون التي راجت في عصرهم، حيث كان الاعتماد على الفنون الوافدة من الخارج، ولكن بعد أن استقرت الإمبراطورية، وبدأ الخير العميم يفد إلى إيران، وجدنا الملوك والأمراء يهتمون بالزينات ومجالس الشراب واللهو والرقص وأخذت النساء تهتم بالحلي والعطور، ويتغالين في تزيين ملابسهن

كما تبع ذلك اهتمام الملوك والأمراء ببناء ساحات واسعة رحبة في القصور لكي تكون مقراً لمجالس الشراب والمنادمة، وفرشها بأفخر الأثاث والبسط، كما تفننوا في صناعة الكئوس من الذهب والفضة، بل أحضروا كئوساً مصنوعة من الزجاج الملون من مصر وغيرها من الولايات التابعة لهم .

ونتيجة لمجالس الشراب هذه زاد الاهتمام بالموسيقى والرقص، وصناعة آلات الطرب كالعود والناي والدفوف. كما اهتم الرجال والنساء على حد سواء بلبس الأقراط المصنوعة من الياقوت واللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك من الأحجار الكريمة المستخرجة من الأرض الإيرانية أو المستجلبة من الولايات التابعة للإمبراطورية الهخامنشية .

ولكن يجب الاعتراف بأن معظم الفنانين الذين قامت على أكتافهم هذه النهضة الفنية كانوا من غير الإيرانيين، وذلك لأن الإيراني كما ذكرنا من قبل كان أفضل ما يفخر بالعمل فيه هو الانخراط في الجندية والعمل في الجيش، تاركاً كل المجالات العلمية والأدبية والفنية لسكان الأقاليم التابعة لإمبراطوريته .

سادساً : الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

(١) المجتمع الطبقي :

تتحدث الأساطير بأن جشميد أشهر حكام السرة البيشدادية السطورية، قسم الخلق إلى طبقات والزم كل فرد حدود طبقته، دون أن يسمح لأي إنسان مهما كان مميزاً عن غيره بأن ينتقل من طبقته إلى طبقة أعلى، ثم ذكرت الأخبار بعد ذلك بأن داريوش الكبير عندما انتهى من الحروب وبدأ ينظم الدولة أخذ بمبدأ تقسيم المجتمع الإيراني إلى طبقات .

وكان على رأس النظام الطبقي أفراد البيت الهخامنشي، ويشاركهم في هذه المكانة الممتازة سبع أسر ساعدت داريوش الكبير في ارتقاء العرش بعد أن تغلبوا على سمرديس الذي قفز إلى الحكم أثناء غياب قمبيز في مصر، وكان من حق أفراد هذه الأسر السبع حضور جلسات البلاط والتمتع بكل خيرات الإمبراطورية، كما أنعم عليهم داريوش بإقطاعيات كبيرة، كما كان يلزم عدداً كبيراً من العبيد بالعمل بلا مقابل في أراضيهم، وإلى جانب أفراد هذه الأسر السبع كانت توجد بعض الأسر الكبيرة الغنية الأخرى التي حياها داريوش ومن تبعوه بأهم المناصب الإدارية في الدولة كما كان بعض أفراد هذه الأسر يتوجهون مع الجيوش المحاربة ويتولون تسيير الأمور في هذه الولايات في مقابل محاباتهم بكثير من الإقطاعيات ولعل هذا الأمر شبيه بالأسر التركية والشركسية التي وفدت إلى مصر مع حملة محمد علي وحظيت بالكثير من المميزات وملكت العديد من آلاف الأفدنة، كان ذلك على حساب الشعب المصري.

وتأتي بعد ذلك في المرتبة طبقة الكهنة، وهم الذين كانوا يشرفون على المعابد، ولعل المكانة الكبيرة التي حظي بها أفراد هذه الطائفة مردها إلى إعلان داريوش اتخاذ الدين الزردشي ديناً رسمياً للدولة، وتكليف الكهان بالإشراف على المعابد، ولاشك أن مخصصات هؤلاء الكهان وما كانوا يحصلونها من نذور قد وفر لهم حياة رغدة وحقق لهم مكانة اجتماعية ممتازة .

ثم يأتي دور طبقة المحاربين ورجال الجيش، وقد استطاع أفراد هذه الطبقة الحصول على مميزات طبقية عديدة وذلك لأن الدولة الهخامنشية كانت دولة عسكرية في نشأتها وفي استمرارها، ولهذا كان أفراد الجيش مميزين عن غيرهم، وتوزيع عليهم كثير من الغنائم التي كانوا يحصلون

عنيها من الولايات التي فتحوها. ولهذه المميزات الطبقية العديدة كان ينظر لأفراد الجيش نظرة إكبار وإعزاز تفوق نظرة المجتمع لأي طبقات عاملة أخرى .

وأخيراً يأتي دور العمال والحرفيين، وهذه الطبقة تضم العمال الزراعيين والصناعيين والتجار وغيرهم ممن يعملون بأيديهم، وذلك في مقابل أجور تدفع إليهم .

وإلى جانب هذا التقسيم الطبقي للأحرار، فقد وجد نظام العبيد، وهو الأسرى الذين أحضروا من الولايات العديدة التي خضعت للدولة الهخامنشية وكان هؤلاء العبيد يجبرون على إنجاز الأعمال الشاقة والصعبة والتي لا يرضى الأحرار القيام بها، كما كان هؤلاء العبيد يجبرون على العمل بلا أجر في أراضي الملك، وقد قدر البعض هؤلاء العبيد الذين يعملون في تلك الأراضي الملكية بما يزيد على ثلاثة آلاف من العبيد، ولم يقتصر علمهم في خدمة الملك، بل أجبر بعضهم على العمل في أراضي كبار رجال الدولة، وأفراد الأسر الكبيرة، بل أن بعض هؤلاء العبيد فرضت عليهم الخدمة في تنظيف المعابد وخدمة زوارها .

وهكذا كان المجتمع الإيراني في ظل الدولة الهخامنشية مجتمعاً طبقياً، ولاشك أن هذا النظام الطبقي أثر على نوع الحياة الاجتماعية والثقافية التي عاشتها إيران قديماً، ويعلق على ذلك صاحب كتاب سيري در تاريخ إيران باستان بقوله :

...... كان الاهتمام بالتعليم وثيق الصلة بالتقسيم الطبقي، ولهذا لم تحرز إيران تقدماً علمياً كبيراً، وذلك لحرص الكهان على عدم توسيع رقعة العلم وتوفيره للجميع، ولما كانت الفلسفة وعلم الكلام وغيرها من العلوم العقلية ترتبط في تقدمها بالمناخ الديمقراطي والتفاعل الكامل بين جميع

الطبقات والأفراد، فإن هذه العلوم لم تجد لها رواجاً في إيران حيث كانــت تفتقد الحياة الديمقراطية ...

(٢) النشاط الاقتصادي :

أولاً : الزراعة :

لقد حظيت الزراعة في غيران بتشجيع كبير وصل إلى حد التقــديس في الديانة الزردشتية، ولعل ذلك أثر من آثــار طبيعــة الأرض الإيرانيــة الصعبة، وذلك كي يقبل الفلاحون على فلاحة الأرض وتوفير القوت علــى الرغم من المشاكل العديدة التي يواجهونها، وأهم هذه المشاكل عدم وفــرة المياه في الراضي الإيرانية وضيق المساحات الصالحة للزراعية، وأمــام هذه المكانة المميزة نسبياً للزراعة تمتع المزارعون ببعض الأفضلية الطبقية على غيرهم من الطبقات العاملة الأخرى .

ومن النظم الزراعية التي كانت سائدة في إيران منذ القدم وذلك كأثر من أثر الطبيعة الصخرية والرملية – نظــام القنــوات المغطــاة حتــى لا تتعرض المياه للتبخر أو التسرب في باطن الأرض، وكانت هذه القنوات يتم بناؤها وتبطينها بمادة مانعة للتسرب كالأسمنت في العصر الحديث ثم يــتم تغطيتها بعد ذلك حتى لا تتعرض لأشعة الشمس المرتفعــة هنــاك. ومــن المعروف أن داريوش نقل هذا النظام إلى مصر واستخدمه في ري أراضي الواحة الخارجية بالصحراء الغربية .

أما عن ملكية الأرضي الزراعية فكانت أكبر المســاحات الصــالحة للزراعة ملكاً للملك وأفراد أســرته ولكبــار حاشــيته. وكــان الفلاحــون الإيرانيون يعملون في هذه الراضي بالأجر، في حين يعمل العبيــد بــدون أجر، وإنما بغذائهم وشرابهم فقط. أما بقية الأرض الصالحة للزراعة فكانت

ملكاً لصغار الزراع يشرفون على زراعتها. وأهم المحاصيل التـي كـانوا يعنون بزراعتها القمح والشعير إذ يعتمد عليهما في توفير الغذاء للجميع ...

ثانياً الصناعة :

لاشك أن انفتاح إيران على مراكز متقدمة في الصناعة كانت موجودة في الولايات التابعة للإمبراطورية الهخامنشية جعل إيران تكتفي باسـتيراد المصنوعات من هذه المراكز، وذلك على حساب تطوير الصناعة في إيران نفسها ولهذا نجد الصناعة الهخامنشية تظل على ما كانت عليه تقريباً فـي العصر الميدي .

أما عن المعادن التي استخدموها في صناعتهم البدائية، فقد ورد فـي الأخبار أن الإيرانيين عرفوا الحديد منذ العصر الأسطوري، وقد اسـتطاع الأثريون الفرنسيون استخراج العديد من الآلات الحديديـة فـي كشـوفهم الأثرية بمنطقة شوش. ومن هذه الآلات الفئوس والبلطات وحدوات الخيول، وكذلك بعض الأدوات المنزلية والحربية، كما عثر فـي بعـض المنـاطق الإيرانية على مصنوعات نحاسية كذلك، وأثر عنهم أيضاً أنهم اسـتخدموا الذهب والفضة في صناعة بعض أدوات الزينة .

ومن الصناعات التي وجدت رواجاً أيضاً، صناعة المحـاجر وذلـك للنهضة العمرانية الضخمة التي شهدتها الإمبراطورية الهخامنشية، إذا مـا قيس ذلك بما كان عليه العمران في الدول الميدية .

ثالثاً : التجارة :

نفر الفرس من التجارة والعمل في السوق واعتبروا السـوق مرتعـاً للأكاذيب والخداع والغش، لذا كان يأنف معظمهم من تدنيس أيديهم بأموال التجارة، ويكتفي بعضهم بما تدره عليه أرضه من حاصلات دون أن يكلف نفسه آثماً ببيع جزء من هذه الحاصلات وشراء مواد تجارية أخـرى ولـو

حتى على سبيل المقايضة. وهذا الموقف جعل التجارة حكراً للأجانب دون الإيرانيين .

وعلى الرغم من هذا الموقف فإن الإيرانيين عملوا على ترويج التبادل التجاري بين الولايات التابعة لإمبراطوريتهم، وذلك بإعدادهم لطرق ممهدة تربط بين هذه الولايات وأهم هذه الطرق طريق كان يصل بين شوش وسرديس بلغ طوله ألف وخمسمائة ميل، والطريق الثاني كان يصل بين منف عاصمة مصر وشوش كذلك. وقد مهدت هذه الطرق في عهد داريوش الكبير، وزودت بالأربطة وحرس الحدود لكي يوفروا الأمن لقوافل التجارة.

وإلى جانب هذه الطرق الرئيسية شقت طرق أخرى اجتازت مفازر أفغانستان إلى بلاد الهند، وهكذا أمكن وصل الهند بمصر عبر الأراضي الإيرانية بطرق ممهدة وآمنة، مما أدى إلى رواج التبادل التجاري بين مصر والهند، وأفادت من هذا الرواج جميع البلاد الواقعة على الطريق بينهما .

ومن مظاهر اهتمام داريوش بالتجارة كذلك مشاركته في إعادة حفر قناة السويس وذلك لربط إيران والهند بموانئ البحر الأبيض المتوسط .

ولعل داريوش أراد بإنشاء هذه الطرق البرية التي تربط إيران بالولايات الشرقية والغربية، وكذلك حفر قناة السويس لتربط بين تجارة الهند وموانئ البحر الأبيض عبر الموانئ الإيرانية، لعله أراد أن يجعل إيران مركز التجارة العالمية في ذلك الوقت، وأن يكون معظم التجارة العالمية تمر خلال الراضي الإيرانية وموانيها، ولعله قصد بذلك إضعاف شوكة اليونانيين والفينيقيين الذين كانوا يشرفون على هذا النشاط التجاري قبل الإمبراطورية الهخامنشية. كما لا يخفى علينا أن هذه الطرق البرية والبحرية كانت إلى جوار فائدتها التجارية ذات استراتيجية عسكرية حيث

يكون في مقدور جيوش الإمبراطورية التحرك السريع نحو أي ولاية ترفع راية العصيان وتشق عصا الطاعة. فقد ورد في الأخبار أن جياد الشاة كانت تسلك طريق شوش – سرديس البالغ طوله ١٥٠٠ ميلاً في سبعة أيام فقط. وهذه مدة قصيرة إذا ما قيست بوسائل المواصلات في ذلك الوقت، ولاشك أنها تتيح له فرصة للانقضاض على أي حركة تمرد قبل أن يستفحل خطرها .

رابعاً : الضرائب :

كان نظام الضرائب – كما يقول الدكتور عبد المنعم حسنين – من أهم النظم التي ابتدعها دارا الأول (داريوش الكبير)، فقد حدد لكل ولاية مقداراً من المال يقتضيه منه كخراج .

وكان نظام الضرائب هذا يضمن تكاملاً اقتصادياً لميزانية الإمبراطورية وتوفيراً لاحتياجاتها، فقد فرض داريوش على كل إقليم تقديم خراجه في صورة أهم ما ينتجه من محاصيل، ونتيجة لتعدد هذه الأقاليم وتنوع المحاصيل فيها فقد توفر لإيران كل ما كانت تحتاج إليه من مواد اقتصادية عجزت الأرض الإيرانية عن إخراجها، أو كفت أيد الإيرانيين عن تصنيعها، وكانت هذه الضرائب يتفاوت تقديرها من ولاية لأخرى، وذلك بحسب غنى الولاية أو فقرها .

ومما لاشك فيه أن هذه الضرائب كانت تكفي حاجة إيران وتزيد عن ذلك، فعلى الرغم من بذخ خلفاء داريوش ومغالاتهم في مظاهر الأبهة، فإن الإسكندر عندما اجتاحت جيوشه أرض إيران، وجدت في الخزائن الملكية قدراً طائلاً من المال .

(٣) الأعياد الوطنية (النوروز) :

هناك بعض التقاليد والعادات التي سادت إيران في التاريخ القديم، وما زال الإيرانيون يحتفون بها ويحرصون عليها، وأهم هذه العادات والتقاليد تلك التي ترتبط بعيد إيران الوطني، وهو عيد النوروز .

ومرجع هذا العيد يصل بنا إلى مرحلة من القدم تصل إلى عهد جشميد الملك الشهير في الدولة البيشدادية الأسطورية، ويقال بأن مناسبة الاحتفال بهذا العيد ترجع إلى أن جشميد بعد أن تملك أقاليم الدنيا السبعة أمر الجن بأن يصوغوا له عجلة (مركبة) من غاج ونحاس، وأن تحملها الجن وبداخلها جشميد ليطوف بأركان دولته ليطمئن على حالة الأمن واستتباب أمور الرعية، ثم يعود بعد ذلك إلى عاصمة مله بعد ذلك، وفعلاً تم صنع المركبة وركب جشميد ثم حملته الجن وطافت به من دنباوند إلى بابل بالعراق ثم عادت بعد أن وفقت في تنفيذ المهمة التي صنعت من أجلها هذه المركبة، وكان هبوطها فوق قمة جبل دنباوند مرة أخرى، فهلل الناس وكبروا، وقالوا هذا يوم جديد وعيد سعيد وأطلقوا عليه اسم (نوروز) أي (اليوم الجديد) وهذا اليوم يوافق يوم الاعتدال الربيعي من كل عام أي يوم ٢١ مارس وهو يوافق الآن بدء السنة الإيرانية، وأخذوا يغنون ويرقصون ابتهاجاً بهذا الحدث العظيم، وأصبح من عادة الإيرانيين الاحتفال بهذا العيد الجديد، واتخذوه عيداً وطنياً لإيران في جميع العصور القديمة والحديثة، ولم يقتصر الاحتفال به على الإيرانيين وحدهم، بل شاركهم في هذا مجموعة من الشعوب القريبة من الأراضي الإيرانية، فالأكراد يحتفلون بعيد النوروز ويعتبرونه عيدهم الوطني كذلك، كما يحتفل به بعض سكان مناطق الخليج والعراق .

وهذا العيد الوطني يبدأ مع بداية العام الجديد، أي مع إشراقة اليوم الأول من شهر فروردين، ويستمر طيلة الأيام الخمسة التي تليه، ويسمى اليوم السادس منه بالنوروز الكبير، وكان من عادة الملوك الاجتماع برعاياهم في الأيام الخمسة الأولى لكي يقضوا لهم حوائجهم، وفي اليوم السادس كانوا يختلفون فيه إلى خاصتهم. وقد ذكر بعض المؤرخين بأن الاحتفالات كانت تستمر طوال الشهر بأكمله وليست مجرد ستة أيام فقط .

ومن احتفالات العامة بعيد النوروز، أن رب الأسرة في أول أيام النوروز يخرج قبل بزوغ الشمس، ويطوف حول البيت ثلاث مرات ثم يطرق الباب، فيرد عليه شخص من الداخل قائلاً: من أنت؟ وماذا تحمل؟ فيجيب: احضر معي الفأل الحسن والمسرة، فيؤذن له بالدخول، فإذا به يحمل كمية من الحبوب وعدداً من الأغصان، فيبدأ بنثر الحبوب في أرجاء الغرفة وتوزيع الأغصان لترمي في موقد الأسرة، وهنا يتفاءل سكان البيت بصوت احتراقها .

ومن احتفالات العامة كذلك تجهيز مائدة النوروز، ويوضع عليها كميات من الحلوى والشراب والخضراوات والنقل، وغير ذلك من المأكولات والمشروبات، وتوضع على المائدة أيضاً مرآة ومجمر النار والعود والعنبر وباقة من الزهور وبعد إطلالة النوروز يقف أفراد الأسرة كلهم يرتلون آية الصمة من (الأوستا) ويتفرغون إلى (أهورامزدا) لي يمنحهم العمر المديد، وينعم عليهم بالسعادة والخير .

وقد انتقلت هذه المائدة إلى احتفالات الإيرانيين بعيد النوروز بعد الإسلام باسم مائدة السبع سينات (سفرة هفت سين)، وسبب تسمية هذه المائدة بهذا الاسم يرجع إلى أن المائدة يتصدرها سبعة أشياء يبدأ اسم كل منها بحرف السين، وهذه الأشياء السبعة هي :

١ – سمنو (تهيأ هذه الأكلة من سيقان القمح الطرية وفق مراسيم وطقوس خاصة) .
٢ – سكة (أي نقود معدنية) .
٣ – سركة (الخل) .
٤ – سير (الثوم) .
٥ – سنجد (نوع من الفواكه المجففة) .
٦ – سمك .
٧ – سيب (تفاح) .

ومازال هذا التقليد متبعاً حتى اليوم، ويضاف إلى هذه السينات السبع شمعتان تتوسطهما نسخة من القرآن، وهذه توضع في وسط المائدة، كما توضع مرآة عليها بيضة يقال أنها تتحرك وقت التحويل، كما تنثر بعض حبات القمح أمام المرآة .

ومن المراسيم والطقوس التي كانت تتبع في عيد النوروز تقديم الهدايا إلى الملك سواء أكانت من رعاياه أو من غيره من الملوك .

ومن المراسيم التي كانت رائجة لدى الإيرانيين كذلك إيقاد النار في الليلة السابقة على النوروز، وذكروا أن المقصود من إيقاد النار هو إحراق الصفنات التي أبقاها الشتاء في الهواء، كما كانوا يعتدون بأن هذه النار تطرد الكائنات المؤدية التي تلوذ بالظلام .

ومن العادات التي ارتبطت بعيد النوروز كذلك عادة التراش بالماء وذلك في صبيحة العيد وزعم بعض الناس أن هذه العادة مرجعها إلى أن جشميد كان قد أمر الناس بحفر الأنهار وأن الماء أجرى فيها في هذا اليوم، فاستبشر الناس بالخصب، واغتسلوا بذلك الماء المرسل، وتبر الخلف بعد ذلك بمحاكاة السلف .

بعد أن أشرنا بإيجاز إلى أهم المعالم الحضارية الإيرانية في غابر الزمان، بقيت أمامنا نقطة نعتبرها غاية في الأهمية بالنسبة لتاريخ منطقة الشرق وحضارته عامة وبالنسبة لإيران ومصر على وجه الخصوص، فالصلات الحضارية والتاريخية بين البلدين مصر وإيران ليست وليدة اليوم، ولا وليدة دخولهما معاً تحت مظلة الإسلام، وغنما تمتد إلى قرون بعيدة قبل الميلاد، ومن أهم هذه الفترات التي توطدت صلاتهما التاريخية والحضارية كان إبان حكم الدولة الهخامنشية، ومن يرد الرجوع إلى تفاصيل هذه الصلات، فعليه بقراءة الجزء الثالث عشر من المؤلف الضخم مصر القديمة، تأليف المرحوم سليم حسن، ولكنن هنا سنكتفي باستعراض أهم هذه الصلات وبخاصة الحضارية إبان حكم أعظم حكام الإمبراطورية الهخامنشية داريوش الكبير وذلك لأن عوامل الاتصال الإيجابية في هذه الفترة كانت تغلب على أي عوامل اتصال سلبية في غير عهد داريوش .

العلاقات المصرية الإيرانية في عهد داريوش[1] الكبير

٥٢٢ - ٤٨٩ ق . م

مصر قبل مقدم داريوش :

تولى داريوش حكم الدولة الهخامنشية[2] عام ٥٢٢ ق.م وذلك بعد أن قضى على الفتن والاضطرابات التي اجتاحت إيران عندما طال غياب قمبيز في مصر (دخل قمبيز مصر عام ٥٢٥ ق.م ومكث بها حتى عام ٥٢٢ق.م) وقد كانت مهمة داريوش في الإمساك بزمام الإمبراطورية الهخامنشية صعبة للغاية، حيث الفتن مشتعلة في كل أقاليمها تقريباً فبدأ داريوش بإخماد الفتنة في إيران أولاً على أن يتولى مهمة القضاء على الفتن الخارجية بعد ذلك، وما أن انتهى من إيران وأعاد الأمور إلى نصابها حتى بدأ بإخماد الفتنة في بابل وسلك في ذلك مسلكاً عنيفاً، ثم واصل سيره حتى أخمد فتنة الشام .

ولم تكن مصر بمعزل عن هذه الفتن، بل شاركت الأقاليم الأخرى في الثورة ضد الحكم الفارسي وقد تضاربت الأقوال حول سبب هذه الفتنة .

فقد قال معظم المؤرخين بأن قمبيز عندما غادر مصر عام ٥٠٠ق.م توجه صوب الشام قاصداً إيران ليقضي على مناوئيه ويسترد عرشه، وولى على مصر حاكماً فارسياً يدعى (آرياندس) وكان حاكماً قاسياً مستبداً ظالماً مما جعل المصريين ينفرون منه ومن الحكم الفارسي عامة إلى جانب نفورهم ممن عينه والياً عليهم. ألا وهو قمبيز الذي أساء إلى المصريين إساءات بالغة قبل رحيله عنهم .

---

(١) تذكره الكتب العربية باسم دارا .

(٢) تذكر أحياناً باسم الإكمينية .

وصلت أخبار هذه الفتنة إلى مسامع داريوش الكبير وهو مشغول بإعادة الأمن والطمأنينة إلى إيران وما جاورها فعزم إخماد تلك الفتنة لا بحد السيف ولكن بالتودد إلى المصريين، والقضاء على مبعث تظلمهم ونفورهم، وإصلاح ما أفسده قمبيز وآرياندس .

ولكن هناك رأي آخر يقول أن الفتنة التي حدثت في مصر لم تكن انتفاضة شعبية ضد الحكم الفارسي ممثلاً في آرياندس، بل فتنة يقودها آرياندس نفسه حيث كان يفكر في الاستقلال بمصر وما جاورها من حكم الدولة الهخامنشية منتهزاً فرصة رحيل قمبيز عن مصر وانشغال داريوش بفتن إيران وبابل وغيرهما .

ومفاد هذا الرأي الأخير أن الفتنة في مصر لم يكن مبعثها تحرك مصري ضد حاكم أجنبي ظالم بل بسبب خيانة أحد الولاة الإيرانيين، وهذا رأي خطأ والدليل على أن الصواب قد جانبه يبدو واضحاً في أمرين صدرا عن داريوش :

الأمر الأول : أصدره داريوش عام ٥١٨ ق.م أي قبل مقدمه إلى مصر بعام واحد وهو أمر موجه إلى آرياندس لكي يجمع ذوي العقل والمتبحرين بالقوانين المصرية ويطلب منهم امتثالاً لأمر الشاه أن يجمعوا القوانين المصرية القديمة التي كانت سائدة فيها مصر حتى العام الرابع والأربعين من حكم آمازيس (أي السنة التي فتح الإيرانيون فيها مصر وهي عام ٥٢٥ ق.م) وقد تحققت رغبة داريوش في خلال ستة عشر عاماً، فشعر المصريون بالغبطة لهذا العمل واعتبروا داريوش واحداً من منفذي قوانينهم وبخاصة أنه أمر بترجمة القوانين المصرية إلى عدة لغات. وقام بنشر الترجمة الآرامية لهذه القوانين في جميع ربوع إيران .

وصدور هذا الأمر يفيد بأن آرياندس كان يعترف بتبعيته للملك الهخامنشي بدليل أنه نفذ المر الصادر إليه وجمع رجال القانون للعمل قبل مقدم داريوش إلى مصر كما أن هذا الأمر يفيد بأن داريوش كان يرغب في استمالة المصريين قبل حضوره إليهم حتى يمتص غضبتهم ويؤكد لهم بأنه حريص كل الحرص على أن تحكم مصر وفق قوانينها وتشريعاتها التي كانت سائدة قبل مقدم الفرس إليهم، ولو لم تكن الفتنة انتفاضة مصرية لما صدر مثل هذا الأمر .

أما الأمر الثاني الذي أصدره داريوش قبل مقدمه أيضاً فكان موجهاً إلى مستشاره المصري وطبيبه في نفس الوقت وهو أوجا حور رسن Udjahorresne [1]، ومضمون هذا الأمر يتلخص في ضرورة سفر هذا الطبيب المصري بسرعة إلى مصر لكي يعيد بناء المدرسة الطبية في سايس والملحقة بمعبد نيست، والتي خربت في عهد قمبيز .

وحرص داريوش على سرعة وصول هذه الطبيب إلى مصر ليعيد تعمير المدرسة الطبية يوضح لنا مدى رغبة داريوش في إصلاح كل ما يشكو منه المصريون، وما يسبب ثورتهم على الحكم الفارسي .

ولعل داريوش أراد بهذين الأمرين أن يمهد الجو العام في مصر قبل مقدمه إليها في عام ٥١٧ ق.م وهما يثبتان أن الثورة كانت شعبية وليست من صنع آرياندس الحاكم الإيراني في مصر. وهذا الرأي يؤيدني في

(١) كان أوجا حور سن قائداً للأسطول المصري في عهد بسمتيك الثالث ولكنه كان شديد الميل إلى الفرس وعاملاً مساعداً في دخولهم مصر لذا كان ذا حظوة لدى الفرس وحظي بألقاب عدة منها (رئيس الأطباء) ولابد أن هذا اللقب كان لقباً حقيقياً لا لقب شرف وحسب ... وبعد وفاة قمبيز سافر إلى عيلام ولكن دارا أرسله إلى مصر مرة أخرى وكلفه بهذه المهمة: مصر القديمة ج١٣، ص ٦٦ - ٦٧ .

ترجيحه الإيرانيون أنفسهم حيث يقول صاحب كتاب: جمبانداري داريوش بزرك :

أن المصريين المعتزين بتاريخهم القديم والذين لا يقبلون تسلط الآخرين تذرعوا كثيراً بالصبر حيث تملكهم الغضب من آرياندس، وأخذوا يتلمسون أقرب فرصة للإطاحة به بعيداً عن ديارهم فما أن ترامت إلى مسامع المصريين أخبار الفتن والثورات في أرض إيران حتى ثاروا ضد هذا الحاكم الفارسي .

ومما يرجح أن الفتنة كانت مصرية شعبية تلك الإصلاحات التي أقدم داريوش على تنفيذها بعد مقدمه إلى مصر مباشرة والتي كانت تبغي في المقام الأول تهدئة الثائرين ولكن ما هذه الإصلاحات ؟

مقدم داريوش الكبير إلى مصر، وأهم إصلاحاته فيها :

قبل أن يتوجه داريوش إلى مصر قضى ثلاث سنوات في التعرف على عادات المصريين وعقائدهم ومجالات تفكيرهم وكان مستشاره في ذلك أوجا حور سن وبعد أن استقرت الأمور في العاصمة الإيرانية وما جاورها وبعد أن تعرف على كل ما يهمه من عادات المصريين وتقاليدهم بدأ في التقدم صوب مصر فسلك نفس الطريق الذي سلكه قمبيز منذ بضع سنوات خلت. وأخيراً دخل منف عام ٥١٧ ق.م والتقى بأكابرها وتحدث معهم وأظهر تفهماً كبيراً بموقفهم وأظهر في حديثه معهم مدى حرصه على عاداتهم وتقاليدهم كما أسكن قلوب مسمعيه ولكي يؤكد لهم حسن نواياه ورغبته في إصلاح ما حاق بهم من ظلم أقدم على تنفيذ إصلاحات عدة أهمها :

١ – سارع بالتخلص من آرياندس حيث ألقى القبض عليه وأمر به فقتل، وبذلك خلص المصريين من رأس الظلم ورأس كل بلاء وهكـذا قـدم آرياندس كبش فداء حتى يقبل المصريون عليه .

٢ – ولكي يعترف به المصريون ملكاً عليهم أعاد تنصيب نفسه ملكاً متبعاً في تلك التقاليد المصرية حيث ارتدى ملابس الفراعنة وتليت الطقـوس الفرعونية ووضع على رأسه التاج وفقاً للتقاليد المصرية وقبل أن تطلق عليه الألقاب الفرعونية وعلى هذا فهو ابن نيت إلهة سايس (الحجر) وأم الآلهة، وهو أخو رع إله الشمس .

ولعل تسمية الكهنة له باسم الفرعون كان الغرض منـه أن الكهنـة المصريين يريدون الحفاظ على فكرة استمرار بقاء المملكة المصرية مستقلة دائماً، لذا نجدهم يعدون ملوك فارس أسرة حاكمة مصرية وهـي السـرة السابعة والعشرين، ونفس هذه النظرة وجدناها فـي موقـف الكهنـة مـن الإسكندر وبطليموس وهدريان، حيث اعتبروهم فراعنة حقيقيين .

٣ – أدرك داريوش من خلال تعرفه على عادات المصـريين وتقاليـدهم مدى القوة التي يتمتع بها الكهنة ومدى تأثيرهم الروحي علـى عامـة الشعب المصري فحرص على أن يكسبهم إلى جانبـه لكـي يضـمن بمساعدتهم الوصول إلى قلوب المصريين والحظوة بحبهم وتعاطفهم. ومن القوانين التي أصدرها لكسب هؤلاء الكهنة، ذلك القانون الذي يعيد لهم حق التصرف في إيرادات المعابد بعد أن كان قمبيز قد صادر معظمها.

٤ – مشاركة المصريين في تشييع جنازة أبيس الذي اتهم قمبيـز بقتلـه، وعدم تمكين المصريين من تشييع جنازته فما أن جاء داريـوش إلـى مصر حتى أعد المصريون العدة لتشييع جثمان عجلهم المقـدس فـي جنازة مهيبة تليق بمكانته لديهم، فسارع داريوش إلى مشاركتهم العزاء،

وأمر بأن يدفن العجل بالمقبرة الإلهية بسرابيوم، كما قرر مكافأة ضخمة قوامها ما يعادل اليوم اثنتي عشر ألف جنيه مصري لمن يستطيع إيجاد عجل آخر تتوفر فيه مواصفات عجل أبيس كما وردت في ديانة الفراعنة .

٥ – استجاب داريوش لمطالب الكهنة بإصلاح المعابد التي خربها سلفه قمبيز حيث قام بزيارة المعابد المصرية وأظهر احتراماً كاملاً لها، ولما يوجد بها من تماثيل كما رم الكثير منها فقام بترميم معبد آمون وهو المعبد الذي كان أحمس قد شرع في بنائه ولكنه لم يكمله فقام داريوش بإتمامه كما أصدر أوامره إلى الولاة الفرس بمراعاة شعور المصريين وتقديم القرابين للآلهة المصرية. وكان لهذا التسامح الذي أبداه داريوش أثره بين الفرس الوافدين إلى مصر فبدأ كثير منهم يعتنقون الديانة المصرية ويتسمون بأسماء مصرية. وليس في هذا الأمر ما يدعو إلى الدهشة فإذا كان داريوش قد أطلق على نفسه– ولو على سبيل التظاهر– لقب فرعون واعتبر نفسه ابن الآلهة نيت وأخا رع، فلا يوجد ما يمنع الفرس الموجودين في مصر من التشبه بمليكهم والدخول في الديانة المصرية القديمة .

٦ – أظهر داريوش اهتماماً كبيراً بالزراعة وبمشاكل الري في مصر بخاصة في المناطق التي يصعب فيها الحصول على المياه والحفاظ عليها فأدخل في مصر نظام الري الإيراني وهو يعتمد على قنوات مبنية تحت باطن الأرض لكي لا تتعرض للبخر، كما أنها قنوات مبنية بناء لا يسمح بتسرب المياه خارج القنوات وقد نفذ داريوش هذا النظام في منطقة واحة الخارجة وهكذا تعلم المصريون طريقة جديدة في الري لم تكن معروفة لديهم قبل ذلك .

٧ - بعد أن أعاد داريوش تعمير المدرسة الطبية في سايس وأمدها بكـل احتياجاتها وجد أنه من الضروري أن يتوفر لهذه المدرسة مكتبة مزودة بالعديد من الكتب والمؤلفات حتى تؤدي رسالتها على الوجه الأكمـل، فقام بإحضار الكتب إلى مصر وافتتح أول دار للكتب بها، وقد تم معرفة هذا الخبر من قاعدة تمثال مصري يسمى أوزاهاريس نيتي .

٨ - اهتم داريوش بالعمران والبناء في مصر ويبدو ذلك من الإصلاحات التي أنجزها ومن المباني التي أعاد ترميمها ومن المعابد التي شـيدها، كما يستدل على ذلك من خلال النقوش التي عثر عليها فـي محـاجر (وادي الجماعات) والتي تمثل العمل وهو يمضي بهمة ونشـاط حتـى أصبح حجم العمل يحتاج للإشراف عليه موظفاً كبيراً يدعى خنم -اب - رع، الذي كان يحمل لقب المشرف على الأعمال بالمحجر .

٩ - قادم داريوش بإصلاح الطرق البرية في مصر، وأعاد تعبيدها بعـد أن لحقها الخراب نتيجة للفتن والاضطرابات التي حدثت قبل قدومه إلى مصر، كما شق طريقاً برياً يربط بين إيران ومصر، وهو الطريق الذي كان يربط بين منف العاصمة المصرية وبين مدينة كـوروش الواقعـة على نهر سيحون ثم يواصل امتداده حتى يصل إلى الصين. وقـد زود هذا الطريق بالنزل حيث يجده المسافرون التي تضم عدداً مـن الخيـل السريعة والمعدة لنقل المسافرين من نزل إلى آخر ومن مرحلـة مـن مراحل الطريق إلى مرحلة أخرى وإعداد هذا الطريق والطريق الآخر الذي ربط بين العاصمة الإيرانية وبلاد الـروم والـذي كـان يعـرف بالطريق الملكي، قد ساعد عمال داريوش على التنقل بسرعة وإيصـال أوامر الملك إلى حكام الأقاليم بسرعة فائقة. وقد زودت هـذه الطـرق الهامة بحراسة مشددة، حيث أقيمت الحصون والقلاع عند اجتياز هـذه

الطرق لمنطقة جبلية وعرة، فتكون مهمة الحصون حماية المسافرين من قطاع الطرق الذين يتخذون من شعاب الجبال مأوى لهم .

ولكي ندرك أهمية هذا الطريق الذي شقه داريوش للربط بين أرض إيران وارض مصر، لابد وأن ندرك مقدار الصعوبات التي كان المسافرون بين البلدين يتعرضون لها قبل إتمام ذلك الطريق، حيث كان المسافر من إيران يعبر دجلة والفرات ثم يتوجه إلى سوريا ومنها إلى صور أو صيدا حيث يأخذ سفينة إلى مصر أو يضطر لعبور الصحراء بين فلسطين ومصر عن طريق برزخ السويس. وكم كان عبور الصحراء غاية في الصعوبة لقلة العمران وندرة المياه مما كان يدفع الحكام المصريين قبل عصر داريوش إلى تكليف القوافل بحمل المياه والسير بها في الطرق التي يسلكها المسافرون ولكن بعد أن شق داريوش هذا الطريق قامت النزل بهذه المهمة، وأصبح السفر بين إيران ومصر أسهل بكثير عما كان عليه قبل داريوش الكبير .

١٠ – إنشاء قناة تربط البحرين البيض والأحمر وسأتناول هذه القناة بشيء من التفصيل بعد قليل .

١١ – بناء قلاع حصينة موزعة على حدود مصر ومواقعها الهامة، فقد ذكر أن داريوش الكبير قد كون لمصر جيشاً عظيماً يتولى الدفاع عنها وقسم هذا الجيش إلى أربعة أقسام، حيث خصص لكل قسم منها حصن منيع، وهذه الحصون الأربعة كانت موزعة على النحو التالي :

أ – قلعة منف العاصمة حيث مقر الحاكم الفارسي وذات الموقع الاستراتيجي الممتاز في أهميته لوقوعه على مسافة قريبة من بداية تفرع الدلتا، وكانت حامية منف (البدرشين وميت رهينة الحاليتان) تتألف بوجه خاص من جنود من الفرس يحملون رتب

الضباط كما كانت تضم عناصر أخرى من الجنود المصريين والأجانب .

ب - قلعة بلوزيوم وتقع عند مصب النيل من الجهة الشرقية من الدلتا، ومهمتها حراسة مصر من الجهة الشرقية ولصد أي هجوم قادم من بلاد العرب أو فلسطين .

ج - قلعة ماريا الواقعة في الشمال الغربي من مصر (وهي على مقربة من مكان مدينة الإسكندرية الحالية) ومهمتها حراسة مصر من طرق برقة وليبيا .

د - قلعة الفنتين (أسوان الحالية) وتتولى حماية مصر من جهة الحبشة والسودان .

وإذا كانت هذه القلاع الربع تقوم على مصر والدفاع عنها، فمن مهامها أيضاً ضمان وجود النفوذ الفارسي في ارض مصر كلها وترقب أي فتنة للإسراع بإخمادها والدليل على ذلك أن هذه القلاع كانت تخضع لإشراف الضباط الفرس وتضم معهم جنوداً مصريين وكذلك مرتزقة من جنسيات أخرى، والحكمة من استخدام الجنود المرتزقة هو تقديم العون للجيش الفارسي إذا حدثت فتنة وامتنع الجنود المصريون عن التعاون مع الضباط الإيرانيين، وخير شاهد على ذلك الدول الذي لعبه الجنود المرتزقة من اليهود في قلعة الفنتين حيث وجدت برديات في جزيرة فيلة تثبت التعاون التام بين اليهود وبين الضباط الإيرانيين فعندما امتنع الجنود المصريون عن التعاون مع الفرس سارع هؤلاء اليهود بتذليل كل الصعاب أمام الفرس وقدموا لهم كل ما يحتاجون إليه من مأكل ومشرب، وكل ما احتاجوا إليه من مقومات العيش والترفيه .

وأمام هذا الشعور الذي أبداه داريوش نحو مصر والمصريين، ومـا أقدم عليه من إصلاحات عدة نسى المصريون ثورتهم والتفوا حول داريوش يؤازرونه حتى السنوات الأخيرة من حكمه عندما تجددت الاضطرابات من جديد في عام ٤٨٦ ق.م، أي أن الهدوء ظل يسيطر على الجو العـام فـي مصر من عام ٥١٧ ق.م وهو عام مقدم داريوش إلى مصر إلى عام ٤٨٦ ق.م عندما تجددت الاضطرابات لظروف سنعرض لها في نهاية هذا البحث ونتيجة لهذا الهدوء الذي استمر طويلاً. ونتيجة لتلك الإصلاحات العديـدة اعتبر المصريون داريوش واحداً من ملوكهم الأصليين، بل قيل أن البعض أطلق عليه لقب المصلح العظيم. وحير ما فعله داريوش وخلد ذكْره، إقدامه على إعادة شق قناة السويس .

داريوش وقناة السويس :

فكرة ربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر عن طريق قناة، فكرة قديمة تم تنفيذها عدة مرات في عصور مختلفة ولكن عدم العناية بهـذا الطريـق المائي كان ينتهي به إلى أن تغطيه الرمال ولا يصلح بعدها للملاحة حتـى جاء القرن التاسع عشر الميلادي وأعيد حفرها واستعمالها شرياناً حيوياً في الملاحة الدولية، بحيث لا يستطيع الشرق أو الغرب الاستغناء عنها .

وقد قيل أن أول قناة شقت لتصل بين البحرين كانت في وقت مبكـر جداً، ربما يصل إلى عصر الدولة الوسطى حيث شـقت قنـاة فـي وادي طميلات وهو الوادي الذي يصل ما بـين بويطـة (الزقـازيق الحاليـة) والبحيرات المرة لتصل إلى البحيرات المرة، ثم شقت بعـد ذلـك الأرض العالية التي تقع بين البحيرات المرة والبحر الأحمر وهكذا تم أول اتصـال بين البحر الأحمر والنيل، ومنه إلى البحر المتوسط .

ولكن هذه القناة أهملت وغطتها الرمال إلى أن عاد الملك نخاو الثاني (٦٠٩-٥٩٤ ق.م) التفكير في شقها من جديد وبدأ العمل واسـتمر بضـع

سنوات ولكن المنية وافته نخاو قبل أن يكمل حفر القناة على الـــرغم مـــن المجهود المضني الذي بذله في هذا الشأن حتى قال هيرودوت بـــأن مائـــة وعشرين ألف مصري، ماتوا أثناء هذا الحفر .

وبعد نخاو مرت مصر بفترة اضطراب وتدهور سياسي ثم جاء الفتح الفارسي، فكانت فترة حكم قمبيز ٥٢٥ – ٥٢٢ ق.م فترة غير مستقرة وأخيراً جاء داريوش الكبير بآماله العريضة من الناحيتين السياسية والاقتصادية فأعاد إلى مشروع القناة الحياة من جديد فقد قيل أن وصول داريوش إلى مصر كان في وقت الفيضان حيث كانت المنطقة الواقعة شرقي الدلتا تغمرها مياه الفيضان مما اضطره إلى أن يسلك طريقه عبر وادي طمبلات ليصل إلى العاصمة منف ولعل سلوكه هذا الوادي هو الذي دفعه إلى التفكير في إتمام حفر قناة نخاو .

ولكن هناك رأي آخر مفاده أن داريوش بعد أن تم لـه فـتح الهند (٥١٢ق.م) وجد البضائع المصرية تباع هناك على الرغم من المشاق التي يتحملها التجار في استيراد البضائع بواسطة الطريق البري الوعر فأراد داريوش تحرير التجارة من أهوال هذا الطريق البري الطويل وذلك بإيجاد طريق بحري يربط بين الهند ومصر ماراً بإيران وبحر عمان فأرسل بعثة بحرية استكشافية تولى قيادتها البحار اليوناني الذي صاحب داريوش في حملته على الهند واسمه اسكيلاس. وقد نجحت البعثة في الوصول إلى مصر فشجعه نجاح البعثة على مواصلة الرحلة وربط تجارة الهند وإيران بدول البحر الأبيض عن طريق إكمال قناة نخاو الثاني، وقد تم له ما أراد .

ومسار هذه القناة كان يبدأ من أحد فروع النيل الذي يمر بالقرب من مدينة بوسطة (الزقازيق) ثم تمضي القناة متتبعة وادي طمبلات متفادية من جهة الشرق بحيرة التمساح ثم تخترق البحيرات المرة إلى أن تصل إلى خليج السويس بالقرب من بلدة (الكبرى) .

وكان اتساع مجرى القناة يتراوح بين ثلاثين متراً وخمسة وأربعين متراً، أما عمقها فيبلغ عدة أمتار حيث كان المجرى يسمح بمرور سفينتين

متجاورتين كل سفينة منهما تسير في اتجاه مغاير للأخرى، أما الوقت الذي كانت تستغرقه السفينة في عبور هذه القناة فهو أربعة أيام تمضيها السفينة في رحلتها من البحر الأحمر حتى تصل إلى نهاية القناة على مقربة من بوسطة ثم تواصل السفينة رحلتها إلى أحد فروع النيل وبعد ذلك تصل إلى البحر الأبيض لتواصل الرحلة إلى الميناء الذي تقصده في حوض هذا البحر الأبيض .

ومما لا شك فيه أن هذه القناة التي تآخت فيها جهود المصريين ممثلة في مجهودات الملك نخاو الثاني وجهود الفرس ممثلة فيما أقدم عليه داريوش الكبير كانت ذات فوائد جمة لدول المنطقة كلها كما كانت ذات أهداف استراتيجية دفعت داريوش إلى إتمام حفرها ويمكن إجمال هذه الأهداف فيما يلي :

١ - تقصير المسافة بين بلدان حوض البحر الأبيض والهند عامة، وبين إيران والأقاليم التابعة لها بصفة خاصة .

٢ - إسهام إيران بنصيب في التجارة العالمية وذلك لوقوعها في الطريق بين الهند ومصر ومحاولة داريوش أن تكون التجارة العالمية في أيدي الفرس وأتباعهم من سكان الأقاليم للدولة الهخامنشية، وتطويق تجارة اليونانيين ومنعهم من القيام بدور فعال في التجارة العالمية .

٣ - كان داريوش حريصاً على إنشاء طرق للمواصلات بين عاصمة ملكه وفتوحه الجديدة عن طريق البحر وذلك لتفادي العقبات من أي نوع يمكن مصادفتها في الطرق البرية .

ويبدو أن داريوش كان يدرك أن إتمامه لهذه القناة يعد أعظم أعماله في مصر على الإطلاق لذا نجده يسجل هذا الحدث العظيم على لوحات

عظيمة الحجم، تم وضعها على شاطئ هذه القناة على قواعد مرتفعة ليسهل على بحارة السفن العابرة الاطلاع علها وقراءة ما عليها من نقوش أهمها، الأمر الملكي الصادر بشق القناة واستعمالها للملاحة ولتكون طريقاً يـــربط إيران بمصر .

وهذه اللوحات يبلغ عددها أربع لوحات نصبت على الشاطئ الأيمـــن للقناة تجاه البحر الأحمر وهذه اللوحات كتبت بلغات أربع هي : الفارســـية القديمة، البابلية، والعيلامية، والهيروغليفية. ويلاحظ – من خلال اللوحـــة المحفوظة في المتحف المصري – أن النصوص الهيروغليفية كانت تحتـــل في مساحتها ثلاثة أضعاف ما كتب باللغات الثلاث الأخرى والتـــي كتبـــت بالخط المسماري ولكن أين نصبت هذه اللوحات الأربع ؟

١ – لوحة تل المسخوطة ورد بالصف الثالث منها عبارة تـــدل علـــى حفر القناة في عهد الملك داريوش الأول الفارسي. وهـــذه اللوحـــة محفوظة الآن بمتحف القاهرة وهي مصنوعة من الجرانيت الوردي.

٢ – لوحة كبريت وهي محفوظة بمتحف الإسماعيلية ومصنوعة مـــن الجرانيت الوردي أيضاً ويلاحظ أن أحد وجهيها قد خصص للمـــتن الهيروغليفي والآخر للترجمة باللغات الفارسية والعيلامية والبابليـــة. ويحتوي الصف الثاني من نقوشها على أمر بحفر القنـــاة وتســـيير السفن فيها .

٣ – لوحة السويس، وكانت مقامة على مسافة ستة كيلو مترات شمالي مدينة السويس .

٤ – لوحة السرابيوم وهذه اللوحة لم يعثر عليها حتـــى الآن لـــذا لـــم يعرف عنه أي شيء سوى أنها كانت منصوبة في البقعة الواقعة بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة .

ومن المحتمل أن كاتب هذه اللوحات هو الطبيب المصري أوجا حور سن فقد كان يجيد الهيروغليفية بحكم كونه مصري، كما أجاد اللغات الثلاث الأخرى أثناء رحيله عن مصر بعد وفاة قمبيز، وأقام في منطقة عيلام كما عاش في فترة في العاصمة شوش حتى صدر له الأمر بالعودة إلى مصر .

وماذا جاء في الأمر الملكي بحفر القناة وإعدادها للملاحة ؟

"يقول الشاه داريوش: إنني فارسي. وبمساعدة فارس فتحت مصر. لقد أمرت بحفر قناة من أول النهر المسمى النيل الذي يجري في مصر حتى البحر الذي يتصل بفارس. وبعد ذلك حفرت هذه القناة كما أمرت وأبحرت السفن من مصر عن طريق هذه القناة متجهة صوب فارس، كما رغبت " .

وأخيراً تم فتح القناة وأبحرت السفن بين بلدان حوض البحر الأبيض وبين الهند مارة بمصر وإيران، فكانت فرصة لالتقاء الحضارتين الفارسية والمصرية في أكثر من مظهر :

المظهر الأول : أن حفر القناة كان مناصفة بين ملكين أحدهما مصري وثانيهما إيراني .

المظهر الثاني : ويبدو حتى اليوم في تعانق اللغتين الهيروغليفية والفارسية القديمة في لوحة مازالت محفوظة حتى الآن في المتحف المصري بالقاهرة (١).

وإذا كانت الحضارتان في عهد داريوش قد تعانقتا على ضفاف النيل، فهل تعانقتا على أرض فارس ؟

---

(١) يمكن معرفة جميع الآثار التي عثر عليها لداريوش في مصر بمراجعة كتاب مصر القديمة جـ١٣، ص ٢٢ – ٦٣ .

للإجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نتحدث عن أثـر الحضـارة الفرعونية في حضارة فارس إبان عصر داريوش بشيء من التفصيل .

أثر الحضارة المصرية في فارس إبان عهد داريوش :

اعتلى داريوش الكبير عرش الدولة الهخامنشية عام ٥٢٢ ق.م في حين كانت الدولة المصرية والحضارة الفرعونية قد نشأتا في مصر قبل هذا التاريخ بما يزيد عن خمسة وعشرين قرناً وعلى هذا فإن داريوش ومن قبله قمبيز حين دخلا مصر أخذا بما وصلت غليه الحضارة الفرعونية من تقدم وازدهار وبخاصة في مجالات العمارة والفنون لذا ما أن عاد داريوش إلى عاصمة ملكه حتى بدأ على الفور يخطط لعمل كبير يخلد اسمه عبر القرون، ويكون في الضخامة بلا مثيل وهذا العمل يتمثل في بناء (تخت جشميد) .

ولكي ينجز داريوش هذا الصرح الكبير في صورة تفوق جميع المعابد والقصور التي رآها داريوش في البلاد التابعة للدولة الهخامنشية، لابد له من ذوي الخبرة فاستعان بمهندسين وعمال مهرة من جميع البلاد المتقدمة حضارياً كبابل وآشور ومصر، وقد ورد في الأخبار أن العمال والمهندسين المصريين كانوا يعملون في فارس وشوش. كما ورد أن داريوش هو الذي أرسل هؤلاء العمال والمهندسين للعمل في عاصمة مله، وأنهم شاركوا في بناء تخت جشميد .

ويمكن إجمال أثر هؤلاء العمال المصريين، واثر الحضارة المصرية في إيران فيما يلي :

أولاً : أخذ الفرس عن المصريين فكرة القاعات الضخمة المحمولة على أعمدة، فجاءت قاعة المائة عمود في تخت جشميد متأثرة إلى حد كبير بالقاعة الكبرى في معبد طيبة، وقد شارك العمال المصريون

في بناء أعمدة تلك القاعة، ولكن الفرس طوروا في نظامها حتى تبدو فيها اللمسة الإيرانية، وعلى هذا فهناك فروق بين الأعمدة الإيرانية والأعمدة المصرية نجملها فيما يلي :

أ – جاءت الأعمدة الإيرانية أكثر ارتفاعاً، فقد ذكر أن ارتفاع العمود المصري كان يتراوح بين أربعة أو ستة أضعاف قطره، بينما يتراوح ارتفاع الأعمدة الإيرانية بين عشرة أو اثنتي عشر ضعفاً لقطره .

ب – بالغ الإيرانيون في لمسات الجمال التي أضفوها على أعمدتهم، حتى ذكر بعض المؤرخين أن الأعمدة الهخامنشية تعد أجمل أعمدة العهد القديم كله .

ج – أن اللمسات في الأعمدة المصرية تبلغ ستة عشر تامة، بينما يتراوح عددها في الأعمدة الهخامنشية بين ٣٢ و ٤٨ تامة .

د – رؤوس الأعمدة الإيرانية تفوق في جمالها رؤوس الأعمدة المصرية.

ه – يبلغ الفرق بين كل عمود وآخر في المعابد المصرية مثل حجمه أو ضعف هذا الحجم بينما يبلغ بين أعمدة تخت جشميد من ثلاثة أضعاف إلى أربعة أضعاف .

ولكن على الرغم من هذه الفروق، فإن تأثير الحضارة المصرية لا ينكر في هذا المجال حيث كان لها فضل السبق وهي المشجع لداريوش على البدء في إقامة هذا المسرح الذي مازالت آثاره باقية حتى هذا اليوم في بيربونيس، كما أن مساهمة العمال المصريين في تزيين أعالي النوافذ وطاقات الإيوان أمر مسلم به وكذلك دورهم في تذهيب الرسوم والأعمدة وتزيين الجدران .

كما أن رؤوس بعض الأعمدة الهخامنشية قد جاءت متأثرة بالفن الفرعوني فقد عثر الأثريون في إيران عام ١٣٣٦ على رأسين لعمودين من أعمدة تخت جشميد وقد صنعتا على شكل رأس عقاب، ومن المعروف أن نقش العقاب من الأمور الشائعة في مصر قبل استعمالها في إيران حيث صور حورس في صورة إنسان له رأس عقاب .

ثانياً : أخذ الفرس عن المصريين فكرة بناء المقابر المنحوتة في الصخر فمازلنا نشاهد حتى اليوم في منطقة نقش رستم[١] أربع مقابر في واجهة جبل عمودي لكل منها بابها المصنوع من الحجر على الطراز المصري، إذ يمثل واجهة قصر له أربعة أعمدة يقع بينها المدخل وفوق هذا المدخل يشاهد عرش يتألف من طبقتين كل منهما محمول بسور من الأعمدة من طراز عمد قاعة المائة عمود، ويشاهد الملك قابضاً على قوس بيده اليسرى في حين تبدو يده اليمنى مرفوعة تضرعاً للإله أهورامزدا يرفرف فوقه. ومن بين هذه المقابر مقبرة الملك داريوش الأول .

وهكذا نلاحظ – لو نظرنا إلى صورة قبر داريوش الكبير – أن الفرس قد أخذوا فكرة بناء هذه القبور عن قبور الفراعنة المنحوتة في الصخر والمنتشرة في ربوع مصر كلها، ولكن الفرس أدخلوا على مقابرهم من هذا النوع بعض التغييرات التي تتفق واختلاف عقيدتهم الدينية عن العقيدة المصرية فقد جعلوا على سبيل المثال – صور أهورامزدا إله الخير في الديانة الزاردشتية – تعلو النقوش بينما كان قرص الشمس يعلو النقوش المصرية .

---

(١) تقع هذه المنطقة على بعد خمسة كيلو مترات شمالي تخت جشميد في اتجاه نهر باسوار.
انظر راهنماي تخت جشميد لحسين بصيري، ص٢٨ طبع إيران ١٣٢٥ش .

ثالثاً : نقل الفرس عن المصريين فكرة النقوش القليلة البروز فمن يشـاهد آثار تخت جشميد ونقش رستم يدرك أن هذا الأثر جليا، كما أن هذه النقوش تزين جدران المقابر المنحوتة من الصخر، ومنهـا مقبـرة داريوش الكبير، أضف إلى ذلك أن داريوش قد صور بهذه النقوش جميع الأقوام التابعة لدولته وقد حضر مندوبون عن كل إقليم إلـى مجلسه لتقديم الهدايا ولكن اللوحة التي تصور مندوب مصـر قـد أصابتها يد الزمن بالتشويه فطمست معالمها ولم يعد مـن الممكـن الاستدلال على تفاصيلها .

رابعاً : ومن الصناعات التي نقلها الفرس عن المصريين صناعة الأواني، سواء أكانت أواني حجرية ورخامية أو أواني زجاجية، فقد كشـفت التنقيبات التي قام بها المعهد الشرقي بجامعة شـيكاغو والحكومـة الإيرانية في برسيبوليس عن أشياء كثيرة لطيفة بين أنقاض الخزانة الملكية، لوحظ من بينها الأطباق والسلاطين الحجريـة والرخاميـة التي حملها من مصر إلى إيران الجيش الإكميني (الهخامنشي).

ومن الأشياء التي عثر عليها كذلك في حفريات تخت جشميد بعـض الأواني الزجاجية الملونة، فكانت هذه أول مرة يعثر فيهـا علـى أوانـي زجاجية ملونة بين آثار إيران ومن المعروف أن هذا الفن كان معروفاً لدى المصريين منذ الألف الثاني قبل الميلاد وقد زاد تفوق المصريين في هـذا الفن خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة حيث توصل الصناع المصريون إلى صناعة الزجاج الأسود والأزرق والأحمر والأبيض والأصفر والبنفسـجي وكانوا يستوردون بعض الألوان التي لا تتوفر لديهم من الـبلاد الأخـرى، ومنها إيران والقوقاز .

ولا شك أن الفرس عندما وفدوا إلى مصر أخذوا بتقدم المصريين في صناعة الأواني المختلفة، فحرص مليكهم على أن يعمل بعض الأواني الفرعوني إلى قصره، كتحف فنية وكنوع من الرفاهية يريد أن ينعم باستعماله وأعجب الصناع الإيرانيون بهذه الأواني، فأخذوا يقلدونها .

خامساً : كانت مصر متقدمة في مجال الطب منذ القدم ولعل إيران أفادت من هذا التقدم فقد ورد في الأخبار بأن أوجا حور سن قائد البحرية المصرية وكبير الأطباء سافر إلى شوش بعد رحيل قمبيز عن مصر وأمضى في شوش مدة من الزمن في قصر داريوش الكبير حيث شغل منصب كبير الأطباء، ولكي يشغل هذا المنصب لابد وأن تتوفر فيه شروط معينة أهمها تفوقه في هذه الصناعة الهامة، لابد وأن يكون أكثر تفوقاً في مهنة الطب من جميع الأطباء الإيرانيين الموجودين في القصر ولهذا كان وجوده – وربما وجود غيره من الأطباء المصريين – فرصة لينتقل علم الطب المصري إلى إيران، وقد ذكرت الروايات اليونانية أن داريوش كان مهتماً بعلم الطب وتقدمه وكيف كان حريصاً على تشويق أطبائه على بذل المزيد من أجل تحصيل العلوم الطبية .

وهكذا كان أثر الحضارة المصرية الفرعونية في الحضارة الإيرانية إبان عصر داريوش الكبير متنوعاً وشاملاً للعديد من مجالات النشاط البشري وبخاصة المادي منه وكان تعانق الحضارتين المصرية والإيرانية شيئاً له شواهده الثابتة في أرض إيران وفي الأرض المصرية. ومع تعانق هاتين الحضارتين في ظل حكم داريوش الكبير فهل ظلت الأحوال السياسية على هدوئها منذ قدم داريوش إلى مصر في عام ٥١٧ ق.م إلى أن رحل عن هذا العالم عام ٤٨٦ ق.م .

مصر في نهاية عهد الملك داريوش الكبير :

بعد أن وفد داريوش الكبير إلى مصر عام ٥١٧ق.م وأجرى بها العديد من الإصلاحات أقبلت البلاد عليه وساد الهدوء والطمأنينة طوال الأعوام الممتدة من عام مقدمه حتى عام ٤٨٧ق.م حيث بدأ المصريون ثورة جديدة ضد الحكم الفارسي ولكن لم ثار المصريون من جديد وبعد فترة طويلة من الهدوء والاستقرار ؟

ذكر بعض المؤرخين أن الثورة التي نشبت في مصر عام ٤٨٧ق.م – أي قبل وفاة داريوش بعام واحد – كان مرجعها كثرة الضرائب التي كان يفرضها الحكم الفارسي على مصر حيث كانت المنطقة السادسة هي التي تضم مصر وبرقة وليبيا تدفع جزية سنوية للخزينة الهخامنشية مقدارها سبعمائة تالان من الفضة (ما يعادل ٨٤ ألف جنيه مصري تقريباً) يضاف إليها ما تقدمه مصر من غلال تفي باحتياجات مائة وعشرين ألف جندي يقيمون في القلاع الأربع الموزعة في الأرض المصرية كما تدفع مصر للخزينة الفارسية دخل مصايد السمك في بحيرة موريس .

ورأي آخر يقول بأن هذه الثورة كان سببها أن وصلت إلى مسامع المصريين أخبار هزيمة الفرس أمام الإغريق في موقعة ماراثون عام ٤٩٠ق.م فوجد المصريون الفرصة السانحة لإعلان الثورة ضد الفرس في مصر .

ولكن الحقيقة أن هذين السببين كانا مجرد عوامل مساعدة على الثورة، ومن المظاهر الخارجية لها أما السبب الحقيقي – كما أراه – هو الشعور الوطني المصري ومحاولة الحصول على الاستقلال على الرغم من الإصلاحات العديدة التي أقدم داريوش على تنفيذها في مصر التي شعرت بالرضا في عهده، نتيجة لميلوه الطيبة نحو المصريين إلا أن الإصلاحات

مهما تعددت شيء والحرية الوطنية شيء أكبر لا تغني عنه أي إصلاحات

ويؤيدني في هذا الرأي، مؤرخ إيران الكبير حسن بيرنيا، حيث قال :

"... لابد من الاعتراف بأن الفتن التي حدثت في مصر في أواخر حكم داريوش، وفي أثناء حكم من خلفوه إلى أن المصريين لهم مجدهم وحضارتهم التي تعد واحدة من أهم حضارتين في الشرق القديم ولابد لشعب كهذا أن يكون محباً للحرية تواقاً إليها ومن الضروري أن يثور لتحرير نفسه ... " .

وصلت أخبار الفتن إلى داريوش وهو مشغول بإعداد حملة ضخمة لمحاربة اليونانيين فتملكه الغضب وتوعد وصمم على إخماد الفتنة ولكن المنية عاجلته في العام التالي – أي ٤٨٦ ق.م – فترك لابنه خشيار شاه مهمة القضاء على هذه الثورة، فنجح في ذلك عام ٤٨٤ق.م ولكن الحالة لم تستقر في مصر بعد وفاة داريوش بمثل ما كانت عليه في عهده بل تعاقبت الفتن والثورات إلى أن استطاعت مصر الاستقلال عن الحكم الفارسي عام ٤٠٤ ق.م .

بعد أن تناولنا بالدراسة الموجزة أهم العلاقات التي كانت تربط بين مصر وإيران على عهد داريوش الكبير يمكننا القول بأن هذه العلاقات – لو تركنا الصلات السياسية جانباً – كانت إيجابية لصالح الشعبين المصري والإيراني، ولصالح بني الإنسان جميعاً، فقد نتج عن اتصال النشاط البشري هنا وهناك، تقدم وازدهار في حضارة كل شعب من الشعبين ومازالت آثار امتزاج الحضارتين وازدهارهما ماثلة أمام الأعين وممثلة فيما تضمه متاحف كل من مصر وإيران حتى الآن وما تشتمل عليه المناطق الأثرية في كل منهما وفي المشروعات الضخمة التي ربطت إيران بمصر برياً وبحرياً فأحدثت انفتاحاً بالنسبة للشعبين على جميع أقوام الأقطار المجاورة

كما كان هذا التعاون بين الحضارتين عاملاً هاماً فـــي النشـــاط التجـــاري العالمي عن طريق ذلك الدور الكبير الذي لعبته قناة السويس والتي اختلطت في حفرها جهود الملك الإيراني بجهود ملك مصر وشعبها.